

وراء البحار

مترجم

محمد أمين حسونه

«اشهد ان الاستاذ حسونه صاحب
حيلة فى فنه. يعرض عليك فى اول الامر
جمال الطبيعة فيلهيك به : فتلقى اليه
سمعك وذهنك فلا يزال بك حتى يعرض
عليك قبح الطبيعة بعد ان يملأ كل
جانب من جوانبك بفتنتها وسحرها ،
ولكن الخيال الغالب على أسلوبه انما
هو خيال الروما نتيك . فبين تركيب
المؤلف فى جسمه ونفسه وبين الخيال
الذى ينزع اليه فى وصفه صلة قوية ،
ولو صورت العاطفة لكان المؤلف ظلها.
فهذه الاعصاب المائجه ، والحس الرقيق،
والافراط فى الولع بالجمال ، هذا محله
على محبة الالوان والاشكال ، حتى انشأ
فى قلوبنا هذه المحبة بقوة ماأوتيه من
التهاب فى العاطفة ودقة فى الحس وسلاسة
فى الوصف .

مجلة الحديث السورية

شفيق جبرى بك

أستاذ الأدب العربي بجامعة دمشق

وراء البحار



وراء البحار

محمد أمين حسونة

إهداء الكتاب

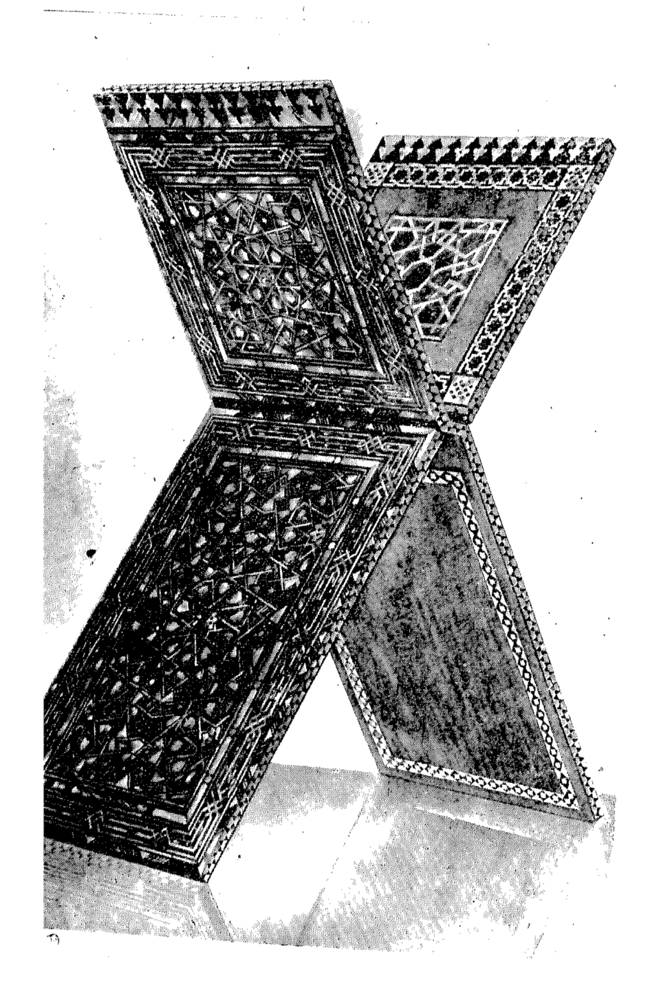
الى حضرة صاحب السعادة محمود شاكر باشا

رمز تقدير وإجلال .

م . حسونه

فصول الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم



الرحيل

سلام أيها الفلك الابر   بلغت بنا الربوع فانت حر

نحن الآن على ظهر الباخرة « رومانيا » . الوقت بعد الظهر بقليل ، وقد غصت الباخرة بجمهور المودعين ، على حين ظهرت بين القبعات المتشابهة التى تملأ الشرفة ، بعض الوجوه القسيمة السمراء ، تعلوها الطرابيش الزاهية الحمراء . وجوه المصريين الذين جذبتهم الدعاية عن رخص المعيشة فى مصايف الارخبيل اليونانى ، فاندفعوا اليها زرافات ووحدانا !

الساعة الرابعة إلا دقائق . . . . .

وداعا يا اسكندرية ! ها هى الباخرة تتحرك بنا فى رشاقة وخفة ، وها نحن أولاء نقوم من مقاعدنا متثاقلين على صوت صفيرها وأزيز محركاتها ، إيذاناً بمغادرتها الميناء ، نودع أحبتنا وأصدقاءنا الذين يلوحون لنا بالمناديل البيضاء ، عن بعد فى الفضاء ، ويدعون لنا بسفر سعيد . وها نحن نوزع البصر فيما بينهم ، حتى اذا ما توارت أشباحهم ، أخذنا نودع الاسكندرية برمالها وشواطئها ومستحماتها ، وطريق « الكورنيش » الذى يزينها ،

ذلك الطريق المفروش بأحلام الحب وخطى السعادة المفقودة .
وتنزلق الباخرة خارج البوغاز فتبدو الاسكندرية كرقعة مزركشة في ثوب الصحراء الطويل الاصفر ، وقد خلعت الشمس عليها أشعتها الذهبية ، فسورتها بقضبان من ذهب .

إيه يا اسكندرية ! أيتها المدينة الحالمة في لجات البحر اللازوردية ، ياعروس الاسكندر وتاج قيصر وعرش كيلوباترا ، لست اليوم أقل فتنة منك بالامس ، فقديماً حمل الاغريق الى شاطئك بناتهم ، والرومان فتياتهم ، وشهدت سواحلك ألواناً متباينة من الشعر والغرام ، وسرت في جوك الرطب همسات القبلات الخافتة في جوف الظلام ....

بهذه الاحلام الذهبية أودعك اليوم قبل أن تحملني مياه البحر الابيض بعيداً عن سناك الفتان .

. . .

ها هي أطراف الاسكندرية وأبراج عمائرها تختفي دفعة واحدة كأنما ستاراً أسدل عليها بغتة ، فأحس قلبي يكاد ينتزع من كياني انتزاعاً ، ونفسي تطير شعاعاً نحو الشاطىء ... نحو الاحباء الذين تجمعنا بهم وشائج الدم وروابط القلب ، وكلما بعدت بنا الباخرة عن أرض الوطن ، شعرت كأنني اقتطعت جسمي من ثراه ، واجتززت أوصالي من حماه .

وتلفت حوالى فاذا بنا فى عرض البحر ، فعلى اليمين ماء وعلى اليسار ماء وفي كل ناحية يرتمي فى فجاجها البصر ماء ، واذا الموج

منبسط كصفحة الفولاذ ، لا عوج فيها ولا التواء . فتحتنا أغوار وأعماق ،وفوقنا نطاق لا يحده المرمى ،وحولنا فضاء لانهاية له ، والجمال منثور في الافاق . جمال اشترك في تكوينه البحر وهدوء أمواجه ، وصفو السماء وزرقة أديمها ، حتى اجتمعت لنا من كل هذه الصور الباسمة رقة الطبيعة وحنانها .

ما أعظم الفرق بين الحياة على ظهر الارض وبين الحياة علي ظهر الموج !

على الارض يبطش الانسان ،ويتناول بالتدمير كل شيء ، تروعه مظاهر السلطات وفوارق الطبقات ، فيتنافس تبعاً لاتساع رقعة الارض أو ضيقها ، ويحاول ان يخلد ذكره ويعلى من شأنه في سجل الوجود .

أما على الموج فلا شيء من هذا مطلقاً ، لا تخوم تحرسها الجنود والمدافع والدبابات ، ولا سلطان إلا سلطان البحر ، الجامع بين البطش والشدة ،والفزع والجمال .

فى البر يقفو الانسان آثار من سبقوه ويتتبع معالمهم فوق الثرى ، ولكن أمواج البحر تمحو كل ما ترسمه البواخر والاساطيل علي صفحة الماء ، ويظل البحر كما كان ، لوحة منبسطة ملساء ، باقياً علي خلوده ومجده ، كعمر لا ينقضي ...

والانسان على الموج ، ماقيمته وما شأنه ؟ مخلوق ضئيل تافه يملأ الخوف والخشوع أطرافه ، ويتغلغل الايمان فى أعماقه ، فيرى للطبيعة روعة لا تدانيها روعة ، وآية تتضاءل أمامها آيات مجده،

وعصمة ليس لها من عاصم الا الله .

فى البحر تزول الفوارق وتمحى القوميات ، وترتبط القلوب بوشيجة تآلف خفية ، وتتخذ السفين مظهراً من مظاهر الانسانية في أسمى صورها ، فيتجرد السفر من ميولهم الشخصية ويتسامون عن مستوى الخلافات الفردية ، فكأنهم انفصلوا عن العالم انفصالا أبدياً وأصبحوا جزءاً من الهواء والماء . يندمجون فى صعيد واحد وتجتمع أمانيهم في أمنية واحدة ، فلا بغض ولا انتقام ،ولا تنافس ولا حسد ، كأن يداً سحرية عجيبة مست شغاف قلوبهم فنفت عنها أدرانها وطهرتها من أكدارها . فاذا رست الباخرة على الشاطىء وعادوا الى أمهم الارض ، تبعثرت أمانيهم وتفرقوا شيعاً وإحزاباً.

. . .

يدركنا المساء ويتقدم بنا الليل فتهبط الظلمة رويداً رويداً ، وتبتلع الباخرة في جوفها،ويغرق البحر فى لجة من سواد مدلهم ، إلا أنواراً ضئيلة مترافصة تنثرها الباخرة على حوافى الموج خيوطاً خيوطاً ....

ويدق جرس العشاء ،فينطلق الفوج الاول إلى قاعة الطعام. ويطيب لى أن أظل ناعماً بوحدتي حتى يحين موعد الفوج الثاني فادخل فى زمرة الداخلين .

أغشى قاعة الطعام ،فالفى المائدة قد جمعت حولها خليطاً من سحن وهجات متباينة ، واتفق أن جلست أمامى فتاة تشكية شقراء ، طويلة القامة ، كانموذج للجمال النسوى في أبهى صوره ، ولم تكن

عيون السفر لتتحول عنها ،بل لقد هم فريق من الشبان للحفاوة بها والتوددداليها ، وكان فى طرف المائدة قسيس يونانى ظل يحرك شفتيه فى خفوت كمن يتمتم بصلاة سرية قبل تناول الطعام ، ولكن الشبان ضاقوا ذرعا به ،فأخذوا يقذفونه بزوبعة من التهكم والسخرية ..

فاذا فرغ السفر من العشاء ،ونهضوا عن المائدة انصرفوا إلى مخادعهم ، البعض يشكو دوار البحر، والبعض الآخر موزع النفس بين أحاسيس ومشاعر شتي .

واخترت أن أخلو بنفسى ساعة فأصعد إلى الجسر أتخطر عليه جيئة وذهابا ، وأجتلى ليل البحر ومافيه من سحر وجمال . ويهب النسيم فأفتح له رئتى نقياً خالصاً . ثم أروح أتكيء على الحاجز الحديدى ، مرسلا بصرى في المياه المتراقصة ، وفي الموج المصطفق ، محاولا أن استشف ما تحته . ولكنى لم أر سوى ظلام فى ظلام ...

ويالجمال الليل فى البحر ! إنه ليل مروع ساحر ، ترى سدول الظلام جاثمة على ظهر الموج ، بحيث تبعث في النفس ألواناً من الرهبة وخشوع الاستسلام ، وتلمح النجوم فى قبة السماء ، كليلة حائرة ، كعقود من الضوء تفصلها كتل من الماس الاسود ... فقليل من سكان المدن من يعرف لذة التحديق إلى السماء في حلكة الليل ، ولكن راكب البحر يعتاد بحكم وحدته أن يسامر النجوم ويناجى القمر ، ويرتفع عن هذه العوالم المادية الي سماوات مشرقة عليا ، تطالع فيها آيات مجد الجمال وانتصاره الهادىء .

فى هذه الوحدة الشاملة يطمئن ماحول الانسان، وتغمر النفس احساسات مبهمة شتى ، وتتلاشى حوادث كانت تبدو على جانب من الاهمية عظيم . ما قيمة الحياة اذا عشناها تابهين أو خاملين ، سعداء أو أشقياء ، أغنياء أو فقراء ؟ وماذا ينفع الانسان جبروته وسلطانه أمام هذه القوة الازلية التى لاتفنى ولاتزول ؟ ما أجدر أولئك الذين يمشون في الارض مرحاً كأن الخلود قد علق بجباههم أن يقفوا فى مثل هذه الساعة العظيمة لتنجاب الظلمات عن عيونهم ويذوب كبرياؤهم فى زبد الامواج ، فيشعروا بضئولتهم أمام هذا اللهث السرمدي ، صاحب السيطرة فى كل العصور .

. . .

وفى السفين يستيقظ الناس مبكرين على أشعة الشمس ، وهي تنفذ إلي القمرات من خلال الزجاج الازرق السميك ، فاذا بدت تباشير الصباح وزايلوا مضاجعهم ، كان أول ماتقع عليه أبصارهم وجوه الركاب يتفرسونها ويتعرفون إلي أصحابها ، وقد تراهم على الجسر ، مستلقين بأجسامهم المتعبة المكدودة فوق مقاعد مريحة يستقبلون الشمس ببسمة هادئة مطمئنة ، أو يلهون بالقراءة الخفيفة ، أو يتجاذبون حديثاً يرفهون به عن نفوسهم . وكان كل مايحيط بي لا يزال يذكرنى بأني أعيش فى قطعة من بلادى ، فهؤلاء أصدقائي يتحدثون إلي بالعربية عن أمور أعرفها وأمور أجهلها ، وقد يتلمسون هفوة صغيرة تبدر من أحدهم ليتخذوا منها أداة

للتسلية والترويح عن النفس . وكانت الغادة التشكية قد اتخـذت من جمالها ودلالها فرصة للعبث والاستمتاع ، فهى تغازل كل من تلقاه وكل من تتوسم فيه السماحة ، و كانت تبرجها وسيجارتها يعلنان عن نفسيتها ، حتى إذا ماصادفت في قاعة الراديو ضابطاً رومانياً وسيم الطلعة من ضباط الباخرة،راحت تتودد اليه وتنفرد به ،فيختليان بجانب « السكان »وقد يمضيان شطراً طويلا من الليل على الجسر، يتناغيان بأحاديث الهوى،ويرشفان خمرة الاحلام فى ضوء القمر ....

و كان البحر في اليوم التالي ثائراً مضطرباً ، وأمواجه تصطخب فوارة كقطيع من الغنم الابيض، والباخرة تعلو بنا وتهبط،تزجيها ريح رخاء ، حتى اذا حـل الغروب تلطف الجو فاختفت الامواج تحت سطح المياه وأخذت الباخرة تشق طريقها فى دعة وهوادة وطمأنينة . وبدأ السفر يتسللون من مضاجعهم ،فمنهم من يقصدإلى المقصف يحتسى الخمر ويقتل الوقت فى العبث أو فى لعب الورق ، ومنهم من ينصرف الى قاعة الراديو للوقوف علي أنباء العالم حيث يسخر العلم مافي الوجود من مادة لخدمة الانسان ، ومن النساء من تنطلق إلي قاعة الموسيقى تداعب البيانو أو تنعم بالرقص على نغمات الجازبند ، لتدفع عنهـا سأم البحر وضجره ، فلا شيء أقتل للنفس من الوحدة التى تلقاها المرأة في البحر حيث لا تقع العين إلا على زرقة الماء وزرقة السماء ، ومظهر السفين يخطر بين الزرقتين .

ولست أخفي أن السأم غشي نفسي أيضاً ، فانزويت بعيداً عن الركاب ، وانتحيت ركنا هادئاً فى مقدم الباخرة، وفى يدي كتاب «مارى نوسترم — بحرنا» للكاتب الاسباني بلاسكو إيبانيز ، أطالعه في ضوء الغسق بلذة لاتعادلها لذة، حتى إذا انتهت بى القراءة إلي شيء من الجهد والاعياء رفعت رأسى أجيل الطرف فيما حولي ورحت أفكر في المغزى من السياحة . لماذا نسافر ونشقى ونتحمل هذه « القطعة من العذاب » — كما وصفها العرب — أللنزهة ؟ أم للاستمتاع بمظاهر المدنية ؟ أم للورود من مناهل الجمال ؟

إن السياحة على مابها من متاعب وأخطار ، فيها لذة لا يألفها إلا من تعود الاستكشاف والتطلع ، إنها غريزة حب الاستطلاع وشهوة المعرفة كامنة في قرارة نفوسنا . فان من يشتهى أن يبسط ظله على المجهول،ويتشوف إلى كشف مايغيب عنه ، فيقيس حياته بمساحة هذا العالم المترامى ، هو الرجل الذي يعيش عيشاً إنسانياً صحيحاً .

وليس الكاتب الممتاز من قصر بحثه على بطون الكتب والمراجع ، ولكن الاسفار والسياحة والتنقل هى التى تغذيه غذاء فنياً وتثقفه ثقافة ناضجة ، فتمهد له السبل لدراسة الناس وطباعهم ونزعاتهم والوقوف على دفائن تاريخهم وفنهم وأدبهم ،بحيث يشحذ ذهنه ويلهب خياله ويبعث في نفسه أسمى صور الولع بمظاهر الحياة

فالسياحة جزء هام من برنامج الثقافة ، هى المحطة التى يبدأ

منها كل مفكر رحلته فى سبيل المعرفة واستكناه الحقائق واكتشاف المجهول ، بل هى الينبوع الروحى الذى ينقع فيه الشاعر عاطفته المتعطشة إلى أسمى درجات الجمال .

فى التنقل ابتعاد عن حياة المدن ، وتحرر من ربقة الواجبات اليومية المتشابهة، سواء فى البيت أم فى بيئات العمل . تحس من أعماق قلبك وأنت تقيم فى بقعة نائية يكتنفها الهدوء والمناخ الصحو والتجرد من القيود العادية والانطلاق في أودية التأمل أنك ظفرت بالمثل الاعلى للكمال ، وأنك تقترب من الله أضعاف ما تقترب منه وأنت فى بلدك .

والحياة فى الفنادق الكبرى — سواء في المصايف أو فى المشاتي — تختلف اختلافا بيناً عما نألفه فى بيوتنا وأوساطنا ، فالفنادق مركز حركة عالمية ، بل إنها عوالم ذاتية قائمة بنفسها ، وملتقى أقوام اغتربوا عن بلادهم ، واستعراض حضارات ولغات وأزياء شتى ...

وفيما كنت أقلب هاته الخواطر وأشباهها ، اقترب مني رجلان وآنسة ، واستأذنوا في الجلوس . أما الرجل الاول فعلى مايبدو من حديثه عالم من علماء المصرولوجيا فى طريقه إلي اليونان لانه مولع ببحث الصلة بين الحضارتين الفرعونية والاغريقية والرجل الثاني صحفى بولندى صرف فى مصر والشرق بضعة أسابيع ، يجمع معلومات وأحاديث يغذى بها صحف بلاده . أما الآنسة فالمانية مثقفة ودكتورة فى الفلسفة من جامعة ليبزج ، تنزح عن بلدها في مطلع

كل صيف فتطوف ببعض أطراف العالم ،وتلقى محاضرات ودروساً للشبان والاطفال الالمانيين في الخارج لترتبط بينهم وبين الثقافة النازية ، وكانت فى زيها الغلامى أشبه ما تكون بطفل يسيل رقة ومحبة.

ولمح الصحفي البولندى الكتاب وعنوانه،وسره أن يري أحد آثار أيبانيز في يدى، فطفح وجهه بشراً ، وغمغم بكلمات فرنسية فهمت منها انه يعطف على هذا الكاتب الثائر الذى احتضنته فرنسا وقلدته وسام الشرف ، وبعد لحظة تناولنا الحديث في موضوعات متباينة،منها ما يخص السياسة الدولية ومنها مايخص مصر ، وهنا أراد أن يبرهن أمامى على أن سعادة الفلاح المصرى ورخاء أرضه لم تكن شيئاً مذكوراً لولا النشاط الاوروبي الذى يغمر ضفاف النيل ، ولكن عند ماأبدى اعتراضى على جهله الفاضح بشئون مصر ،وأصحح معلوماته الخاطئة موضحاً له حالة الفلاح قبل أن يثقل الاوروبى كاهله بالدين والربا الفاحش والتلاعب بأقطانه فى البورصة ، تظهر علائم الخجل فى سيمائه،ويعتذر الي فى رقة ولطف .

. . .

تنقضي الساعات ويمر الوقت فى توان وركود حتي يتبرم بعض السفر بالمنظر المتكرر المتشابه ، فاذا كانت ساعة الغداء لفت نظري فريق من الشبان وقد اقتربوا من الجسر ، بين أيديهم منظارات مكبرة ، وهم يشيرون بأطراف أصابعهم إشارات تعيد إلى ذهنى

ماطالعته عن ملاحى كولومبوس حين وقعت أبصارهم على الدنيا الجديدة فصاحوا بصوت واحد : « أرض ... أرض » فهذه هى كريت ، ولدت آلهة الحب والغرام وتدفقت من ينابيعها الاساطير والشعر ، تسمو روابيها فى السماء اللازوردية ، فترى كيف تستيقظ الغرائز فى النفوس ، وتتعلق القلوب بمسحة الجمال الحزين الباهت الذى تخلعه الطبيعة على جزيرة السحر والاحلام ...

ولكن الباخرة لا تندفع نحو كريت ، بل تمضى فى سيرها الى ارخبيل اليونان . . .

فى ظلال الاكروبول

« أيتها الكومة الحزينة . انك خالدة وان ضعفت ، عظيمة وان هويت . فليجد ذلك القلب الذى يشرف عليك ولا يخفق ، كما تخفق قلوب العشاق فوق قبور عشيقاتهم . »

بيرون

لا تزال الباخرة تحبو بنا في لجة الماء ،مجتازة أرخبيل اليونان، لا تبدو أمامنا غير جزر جدباء قاحلة ، لا تزينها خضرة ولا تدب فيها حياة . فاذا حانت ساعة الغروب ، تجعد الطفل اللامع فوق روابيها فتخضبت فى بهيم الافق ككومة مشتعلة من النار .

وتسفر أضواء الفجر الشاحبة عن هـذه الجزر المقطبة التى تفجرت من صخورها العبقرية الاغريقية ،فظلت متحكمة فى حضارة العالم أجيالا طويلة . . . وتتكشف اليابسة والباخرة تقترب شيئاً فشيئاً ، من هذه المساكن الوضيعة الثاوية في قمم الجبال كأعشاش الزنابير ، فتندفع الخواطر الى ذهنى خفافا ... فهذه هي اليونان القديمة ، ولدت الانسان الحق،وأنجبت العباقرة الذين هدوا البشرية بنور العلم وحملوا الى العالم الحضارة ، على حين كان الفكر الاوربى مستغرقا في سبات عميق ، كيف نلفيها الآن بعد ما سلبت أوربا صبيتها ، وانتزعت حضارتها ؟

لاشيء في اليونان الجديدة غير فقر وجوع، وأزمات اقتصادية وسياسية تكاد تعصف بها عصفاً ...

على أن هذه الجزر التي يرتسم الفناء على جبينها الماحل، ثم هي تكاد تضيق الافق الشاسع حتى يصبح كطوق من نور خاشع حولها ، هذه الجزر رفعت بالامس الانوار الصادقة ، في صفاء الجو وفي مهب العواصف ، لاستمالة سفن الحق والحرية والجمال . فكل جزيرة كانت وحدة قائمة بذاتها ، مكونة من دولة شبه مستقلة لها أفكار ومعتقدات خاصة ونظرات في الدين والاخلاق والفلسفة، حتى نما من اختلاط افكار أهل الجزر وتنوع التحزب بينهم ما انتفعت به العقلية الاغريقية من الوجهة العملية ، وفي هذا المحيط الممتزجة أمواهه بصنوف المعرفة ومذاهب الحكمة والفلسفة والتشريع ، طفت المدنية الاغريقية أمام المدنيات الانسانية العظيمة الاخرى .

وانطلقنا من الباخرة نتجول في شوارع بيرية ، ليس في هذا الثغر ما يسر الخاطر ، ولا مايشرح النفس، غير بعض المقاهي ودور شركات الملاحة وعمائر يغلب عليها التقليد . ويقلنا ترام المترو في دقائق معدودة نحو « آلهة السلام وحامية العذارى » ولكن ليس في أثينا اليوم ما يجذب الناس اليها غير آثارها التي تخلع عليها روعة وجلالا، وتجعل منها مهبط عشرات العلماء والمشتغلين بالحفريات الحديثة وآلاف السائحين ، يأتونها شتاء أو صيفاً من أقاصي المعمورة ليردوا من الينبوع الذى تفجرت منه العبقرية الانسانية .

سألت نفسي وأنا أستقبل هـذه العاصمة القديمة لاول مرة : أغربية هي أم شرقية ؟ لقد حاول الاثينيون يوم أحرقوا الاسطول الفارسى ان يقسموا العالم بين شرق وغرب ، وان يقتطعوا أوصال بلادهم من الشرق لتستغرب ، ولكن نظرة واحـدة الى اثينـا تدفعنا الى الاعتقاد الجازم بأنها ليست غربية ولا شرقيـة ، وأن أهلها يقتبسون من كل بلد ، ويحاكون كل حضارة ، فهم مقلدون بعد أن كانوا مبتكرين ، حتى جاءت عاصمتهم خليطاً مشوشاً لحضارات الغرب والشرق .

. . .

من المعتقدات اليونانية القديمة ان أتينا اكتسبت هذا الاسم لان « نبتون وأتينا » تناظرا فى الحصول على شرف سيادة العاصمة ، وقام الملك اركتيوس حكماً بينهما ، فمن يقدم أعز الهبات وأنفس الهدايا ظفر بالاولوية ، فتقدم نبتون وضرب الارض بعكازه ، فشقت ، وخرج منها جواد يقفز ففسر بانه « رمز الحرب » . وتقدمت أتينا وكانت قد خرجت من رأس زيوس أبي الآلهة مدججة بسـلاح الحـكمة ، ومست الارض بعصاها فنبتت للحال شجرة زيتون « رمز السلام » وكانت هديتها بالطبع هى المقبولة .

من ذلك الحين أطلق على أتينا « آلهة السلام وحامية العذارى » والتصق الفوز والنصر باسمها ، وظلت عـذراء وصانت عذرة الاتينيات ، وقـد أشـير الى ذلك برمز فوق الاكروبول ، على هيئة غصن زيتون ، بل ان أعظم نصب أقيم فى الاكروبول كان

لاتينا ، وقد تصورها المثالون بشكلين ، الاول وهى جالسة على عرش ويديها الى ركبتيها أو فوق صدرها . والثانى وقد مدت ساقها كأنها تخطو إلى الامام .

. . .

نمر فى طريقنا الي الاكروبول بدار البرلمان والمكتبة الاهلية والاكاديمية والجامعة ، وكلها مشيدة جنباً لجنب ، لا شيء فيها يستحق الرعاية والاهتمام غير النصب التذكارى الذى أقامه اليونانيون للورد بيرون الشاعر الانكليزى الذي حارب في صفوفهم ضد الاتراك ، وسقط مجندلا في واقعة ميسولنجى فاعترفوا بفضله وأقاموا له نصباً تذكارياً رائعاً .

وليس بيرون هو الشاعر الانكليزى الوحيد الذى استهواه التراث الاغريقى الخالد ، وأغراه بالانتصار للشعب اليونانى ، بل أن زميله الشاعر الشاب روبرت بروك انخرط فى سلك الجيش اليونانى واستشهد في الحرب العظمى .

ذلك ان اليونان فى نظر الشاعر أو الفنان الاوربي بلاد يكسوها جمال رائع ، لا يكاد يشد رحاله إليها حتى يدرك سر الالهام فى الفن ، والقدرة على التعبير عن شتى معانى الجمال .

تنطلق السيارة بنا فى طرق متشعبة ملتوية بعضها معبد ، والبعض الآخر مترب يثير الغبار فى العيون . . ولكن ما هذه الابنية السامقة التى تعلو سفح التل مطلة على أثينا كماسة سوداء تتألق في تاج أمير هندى ، لله ما أجلها وأعظمها !

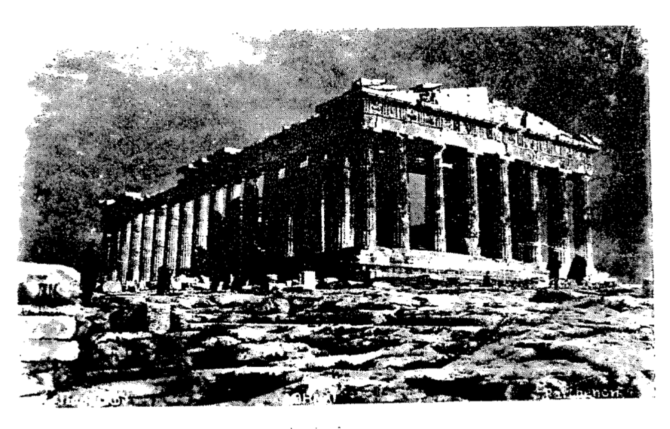
هذا هو الاكروبوليس الذى أقامه الاغريق لالفى سنة خلت تمجيداً لذكرى انتصارهم على الفرس ،وفتكهم بالقائد سركيس، وإحراق عمارته البحرية العظيمة .

وقد ظل الاكروبول مقر الادب ومهد الحكمة ومصدر التشريع ،خلال أجيال طويلة ... شعت من جوانبه عبقريات سوفوكليس ويوربيدس وهيرودتس وفيدياس وغيرها من الاسماء الخالدة فى سجل الفكر الانسانى ، وممن بقيت تعاليمهم نبراساً في الادب والفن والرياضيات والفلسفة إلى ما قبل عصر الاحياء الاوربى ... شهد سقراط وهو يتجرع السم تقديساً للعلم وضحية دعوته إلى الحرية الفكرية بعد أن قدمه الاثينيون على مذبح الاغراض والمطامع ، مدعين أنه يفسد عقول العامة ويمحو المعتقدات التى ورثوها عن الآباء والاجداد .

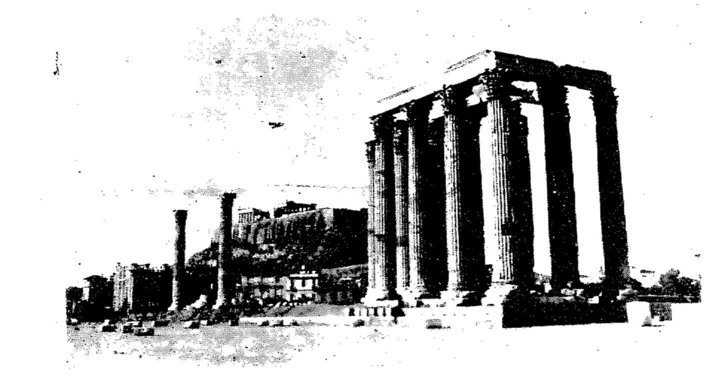
. . .

الاكروبوليس ... لفظة إغريقية قديمة مكونة من كلمتين : « اكرو » وتعنى البقعة المرتفعة من الارض و « بوليس » أى المدينة ،وفي معنى آخر الدولة . . . وقد شيد فى كل بلد باليونان أكروبول ،ولكن أجلها شأناً بلا شك اكروبول أثينا .

وكان أهل « الاكروبوليس » فيما مضى أناساً ذوى حكمة وفطنة ، لهم رجاحة العقل والايمان بحياة ضمنت لتراثهم نعمة الخلود . فشرعوا للبشرية قوانينها ، ووضعوا نظمها وتعاليمها ، وكرسوا أنفسهم لخدمة الحق بعد أن اتخذوا شعاراً لهم « اعرف



الهيكل الأعظم فوق انقاض الأكروبول



معبـد المشترى

نفسك بنفسك» ، وكان لهم مقام رفيع بين غيرهم من الامم فدانت لهم الشعوب بالطاعة وأصبحوا أهل الغلبة والسيادة لان اعتقادهم ان العالم التي اليهم عبء تمدينه وحضارته فظلوا قروناً طويلة متحكمين فى مصيره .

شيد الاكروبول فى عصر بركليس – العصر الذهبي لاثينا – وشاد الملوك والامراء والعظماء قصورهم ومعابد آلهتهم على مقربة منه فجددوا لاثينا شبابها وبعثوا الحياة فى جوانبها طريفة غضة على حين توفر علماء الاكروبول على النهوض بحضارة راقية مؤسسة على قواعد الطبيعة وخالية من كل شائبة فلا تعثر فى عقائد أنيقة ولا تقاليد مرعية .

على هضبة الاكروبول أقيم معبد البارتنيون لاتينا آلهة المدينة وهو يعد بحق أرفع مجهود للعبقرية الفنية في سبيل الوصول الى أسمى درجات الكمال . شاده الملك بركليس ، وكان يحوى فيما مضى التمثال الذى صاغه فيدياس من العاج والذهب الوهاج لاتينا . الي جانبه « معبد النصر مقصوص الجناح » أقامه تسيوس لمنيرفا آلهة الحكمة ، وقد تصور المثالون أن النصر اذا قصت أجنحته يظل في حظيرتهم ولا يطير عنهم ، ولذا أطلق عليه « معبد النصر مقصوص الجناح ».

وفى الجانب الشرقي نرى الاستاديوم — أو كما يسمونه باليونانية «الارينا» — وهو ملعب عظيم كان الاثينيون يلهون فيه بسباق الجياد ويمارس شبانهم فى ساحته ألواناً من البطولة

الرياضية ، ومن دواعي الفخر — أو الاسف — انه لاربعين عاماً خلت تبرع الخواجه افيروف المصرى وبعال مصر، لبناء ملعب جديد فوق أنقاض الاستاديون يسع نحوستين الفاً من المتفرجين، بمناسبة الالعاب الاولمبية الاولى .

وفى هيكل الحكمة نصبت تماثيل بنات كاريات الثلاث ، وشيد في الاركتيوم رواق العذارى المسمي *Karyae* نسبة إلى مدينة كاريا التى اشتهرت فتياتها العذارى برقصهن المقدس . تحف به المقاصير والعمد المرمرية المشرئبة نحو السماء كأنها تسمو خلوداً فوق مظاهر فن المعمار الحديث .

وعند سفح الاكروبول أقيم ملعب ديونيسوس ، وهو يعد أقدم مسرح للدراما فى العالم ، فكانت تمثل فى ساحته مآسى سوفوكليس ويوريبيدس وأخيلوس ، والمسرح بدون سقف ، لان جو أثينا أميل للحرارة فكان من الطبيعى أن يفضل الاثينيون الهواء الطلق . والملعب مقسم إلى ثلاثة مدرجات ، ومقاعده حجرية بشكل نصف دائرة ، فكان المتفرجون يحملون معهم وساداتهم وطعامهم وشرابهم .

وكان الملعب ملكا للدولة ، فهى التى تديره وتتولى اختيار الروايات وعرضها ، وتمنح لرجال الدولة والحكام تصاريح مجانية من المعدن أو العاج ، منقوشاً عليها اسم صاحبها ورقم مقعده ، وقد شاهدنا بعض هذه التصاريح بالمتحف الوطنى .

وكانت تقام أحياناً مباريات بين الممثلين والمغنين ، أما

الحكم فى هــذه المباريات فهو الشعب ، فاذا كانت الرواية قوية والتمثيل متقناً صفقوا وطلبوا إعادة التمثيل ، وإذا كان رديئاً نادوا باخراج الممثلين ، وإذا كان عادياً بسطوا طعامهم وشرابهم وشرعوا يأكلون ويتسامرون دون مبالاة بالتمثيل .

. . .

نجتاز أبواب الاكروبول ونحن نتبع الدليل الذى يتقــدمنا بضع خطوات ، ثم ينعطف إلى اليمين ويقف فجأة أمام أطلال أحد المعابد ويقول : انظروا...

هانحن على مقربة من الجــدار الاثرى الذى اجتمع إليــه تلاميذ سقراط يتآمرون على خطفه لعشرين قرناً خلت ، وهانحن أولاء نكاد نتبين بصعوبة كتابات تركية منقورة فى الصخر :

« مصطفى همت افندى حصنى قلعة بندو سنة ٢٠ مكرر » .

وهاهو الدليل يفيض فى الحديث ليجلو أمامنا هــذا السر الغامض ... ففى خلال حكم الاتراك جعلوا من الاكروبول قاعدة عسكرية ومركزاً للقيادة الحربية ، وحولوا البارنتيون إلى مسجد لاقامة الصلاة ، والاركتيوم إلى حرم للقائد العسكرى ، فلما هاجم الفينسيون الاتراك ، أطلق مورسينى قنابله على الاكروبول فنسف مستودعات البارود وشبت النيران فى مخازن الذخيرة وتهــدمت الابنية والعمد ، فلم تبق سوى هذه الرسالة الفنية الضئيلة التى يكاد يطمسها عن أبصارنا غشاء من نسيج الزمن .

فى معرض الذكريات الحافلة طافت بذهنى أوجه شبه عديدة

بين بناء الاكروبول وبين اطلال وادى الملوك بالاقصر ، فهذه العمد الشاخات ، والعمائر السامقات ، والتماثيل المتناثرة فى رحابه، والهيا كل التى اندثرت بفعل الزلازل أو القنابل ، وهذه الوجوه السمراء النحيلة ، وجوه عشرات التراجمة والادلاء وبائعى التحف وأدوات الزينة ورسوم « الكارت بوستال » . هذه المظاهر جميعاً ، تعيد إلى ذهنى الاقصر بمعابدها وتماثيلها وأبنائها الذين يقفون ببيبانها يبيعون للسائحين الامريكيين تحفاً وتمائم وتعاويذ سحرية .

هذا الشبه نفسه الفيته مجسما بين فن المعمار عندالاغريق وبين معابد الكرنك . فالعمد وفكرة المنحنيات الدقيقة وحلية أطراف العمود إنما هى فرعونية الاصل ، وقد اقتبست عن مصر يوم أن كان النفوذ الفرعونى متغلغلا فى أعماق جزر كريت وقبرص وأرخبيل اليونان ، أو على الارجح أن هذا الفن تسرب عن طريق الفينيقيين الذين كانت أساطيلهم تمخر عباب البحر الابيض.

ولكن أين ربوات الاكروبول من ساحل طيبة الخالدة على مر الدهور ، أو من مهابة الاهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلى ؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التى شيدتها ونقلت جلاميدها الصخرية الهائلة ، الايدى السحرية العجيبة ، أيدى العبيد الضعفاء المستذلين ، أولئك الذين لم يكن نصيبهم سوى أن يسمح الفرعون لاجداثهم بأن تحويها كثبان الرمال لتضم رفاتهم الارض المقدسة .

٢١

كانت هـذه الطائفة من الخواطر وكثير أشباهها تستغرق تفكيرى ، فأقف عند بعضها وأمر بالبعض الآخر مراً سريعاً ، ثم لم البث أن شعرت بشيء كوخز الابر إذ رانت على قلبي حادثة المحامى باباكوس اليونانى، حين وقف فى ساحة العدالة يدافع عن مهرب مخدرات من أبناء جنسه فيقول : اذكروا أيها القضاة أنكم تستنشقون هواء الاكروبول النقى ولاتخوضون فى مياه النيـل العكرة » !

أثينا

«هنا المكان الاقدس ، قبة العقل والنفس،
وطن شعب ومأوى آلهة بعثرت هياكلها»
بيرون

فى اثينا متاع شهى للعيون ، كما فى الا كروبول متاع خصب العقول .... فهـذه المدينة الخالدة ، حلقة الوصـل بين الماضى والحاضر ، وصاحبة الروعة النافذة فى ضمير الازل وقلب التاريخ، لاتزال تسكب على الوجود من ألوان المتاع والمسرة وبهجة الحياة، ما لايقل عن سحرها القديم ، المتجسد بأنواره وظلاله ، بين ملاعب ومغانى فراديس ، نظمت فيها سافو أعذب أشعارها !

هبطنا من الا كروبول فى طريقنا الى « سراى زابيون » فبـدت أثينا تحت أقدامنا ، بأحيائها وأبراج عمـائرها وقباب كنائسها ، كأهرامات من النواقيس الحجرية ، تتآلف حينا فى تدرجها الى الصعود ، وتتنافر حيناً فى انخفاضـها نحو الربى والهضاب التى تسورها ، وقد نفضت الشمس أشعتها فوق هذه الاسوار ، فكانت كدمالج ذهبية ثقيلة فى كعب غانية شرقية متبرجة !

ورحنا نجوس خلال الاسواق والدروب الضيقة ، بعضها تناولته يد التجميل والبعض الآخر لايزال على حالته العتيقة، وعرجنا فى الطريق على ميدان مونسترا كي لتفقد أطلال المسجد الذى شيده القائد التركي مصطفى همت ، وقد تحول جزءا منه إلى دار للآثار الشرقية ، وعلى القصر الملكى القديم بميدان« الدستور » الى أن ألفينا أنفسنا فى شارع « الاستاد » ، أفخم شوارع أثينا وأرحبها اتساعا ، ففيه أكثر دور الوزارات والفنادق والمطاعم والمبانى المنسقة على الطراز الاغريقى الحديث« نيوهلنيك ».ومنه انتهينا الي « سراى زابيون » تلبيـة لدعوة مسيو اثناساكيس رئيس الجمعية اليونانية المصرية التى تعمل على تنميـة الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين البلدين العريقين فى الحضارة والرقى .

و« سراى زابيون » — نسبة الى الاخوين زاباس اللذين وهباها للشعب — تشتمل على معرض دائم للصناعات اليونانية ، وملاعب للتنس والجولف والالعاب الرياضية . وفى هذا المعرض مايعطيك فكرة صحيحة عن تقدم اليونان فى الصناعة والاستقلال الاقتصادى . فكل شيء معروض من صنعهم ، كأنواع السجاد ودباغة الجلود ومنتجات الالبان وصناعة الاثاث والتبغ والخمور والصناعات القومية الناشئة ، حتى معدات الحرب وأسلحة البر والبحر والهواء تصنع فى بلادهم ، وهناك قسم خاص بالحياة الاجتماعية في اليونان وتطورها من حالة البداوة الى ميلاد القرن العشرين ، فازدهار حضارته . وقد أضيف اليه جناح خصص

للمنتجات المصرية ، كان القصد من تهيئته وإعداده ، توقع زيارة جلالة الملك فؤاد لازاحة الستار عن تمثال جده الكبير محمد على بمدينة قوله .

بعد أن فرغنا من الزيارة تناولنا الشاى فى حديقة المعرض ضيوفا على الجمعية اليونانية المصرية ، ووقف مسيو دندراميس ـ أحد أعضائها ـ خطيباً ، فتحدث طويلا عن توثيق العلاقات الفكرية وتنميتها بين البلدين المتجاورين فى حوض البحر المتوسط ، واقترح ضرورة إنشاء قسم للادب العربى فى جامعة أثينا وقسم للادب الاغريقى بالجامعة المصرية .

. . .

خرجت من معرض زابيون وقد أثر في نفسى أعمق تأثير حرص هؤلاء القوم على أن يعرضوا أمام الزائر الاجنبى كل ما في أرضهم من إنتاج صناعى أو زراعى . فالظهور بمظهر القومية الخالصة مع المحافظة على الاستقلال الاقتصادى ، هما أسمى ما تطالعنا به اليونان من معنى ، وأجل مما فى متاحفهم من فن وعلم ودين ، وهذا هو روح الوطنية التى تعمل فى صمت ولا تتكلم .
شىء آخر دهشت له أشد الدهشة ، هو تعصب هؤلاء الناس وتغاليهم فى القومية ، فلا سطر يكتب بغير اللغة اليونانية ، فأسماء الشوارع وعنوانات المحال التجارية والاعلانات وبرامج السياحة وقوائم الطعام ، حتى التراجمة والادلاء رأيتهم فى المتاحف وعلى أطلال الاكروبول ، لا يتكلمون بغير اليونانية . فما سر هذا

الهوس والتغالى في إبداء العاطفة القومية ؟ كشف لنا عن هذا السر أحد الاصدقاء ممن التقيت بهم في أثينا ، فذكر أن اليونان الجديدة لاتبغى أن تشرك سواها في عزتها ، ولا أن تتطفل على لغة أو حضارة لغيرها من الشعوب ، إذ أنها أم اللغات وخالقة الحضارات !

من معرض زابيون انطلقنا إلى معرض الاستقلال ، وفيه الكثير مما غنمه اليونانيون من الاتراك فى حروبهم الاخيرة ، فهناك مدافع ودروع وسيوف مذهبة مقابضها ، وأعلام وبيارق مكتوب عليها «لااله الا الله» ، ولوحات زيتية تمثل بعض الوقائع الحربية وتمجد فكرة الكفاح في سبيل الحرية والذود عنها ، والسرير الذى كان ينام عليه الشاعر بيرون فى ميادين القتال ، وتحف كانت تزين بيوت الامراء والقواد ، كاللوح المنقوش عليه شجرة آل عثمان برسوم سلاطينهم ، ولوح عربى كتب فيه بالخط الكوفى : « قال عليه الصلاة والسلام : عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » .

. . .

يخيل للانسان وهو يجتاز شوارع أثينا ، أنها تشبه الاحياء الاوربية في الاسكندرية الى حد بعيد ، ويدهشك أن فى سكانها من يتكلم العربيـة الدارجة فى سـهولة ، ويشيد بنبل المصريين ويطنب في كرم الفلاحين وحسن معاملتهم ، ومنهم من يستوقفك برهة ليتملى من وجهك صورة من صور مصر التى عاش في ريفها

أو صعيدها ردحاً من الزمن ، فشبع بعد جوع واغتنى بعد فاقة ، حتى اذا ما أتخمته الثروة ، عاد الى الارض التي نبت منها ليستثمر ماجمعه من ذهب مصر وخيرها . إلا أن الظمأ الى النيل الذى شرب ماءه والحنين الى الفلاح الذى زامله وعاشره طويلا ، لا يزال يشتد به المرة بعد المرة حتى يدفعه الى النزوح ثانية عن بلده ليستوطن مصر ويدفن فى ثراها .

أذكر أنى قابلت فى أحد المطاعم جندياً فى الجيش ، كاد يبكى وهو يحدثنى بالعربية عن السعادة التى تنعم فى أعطافها يوم أن كان يعمل « جرسوناً » بمقاهى القاهرة الكبرى ، فيربح شهرياً مايقرب من مرتب قائده ، ثم قال وهو يودعنى ، أنه يرقب بفارغ صبر انتهاء مدة الخدمة العسكرية ليعود وشيكا الى ضفاف النيل . وأذكر عشرات من « يونانيي مصر » ، كنا نلتقى بهم فى لوتراكي واديبسوس وكيفسيا ، وغيرها من مصايف الجبل فكانوا يسرعون الى الترحيب بنا والافتخار بصداقتنا ويعرضون علينا خدماتهم دون مقابل .

على أن لمصر مكانة أخرى في نفوس هؤلاء الناس ، فهم ينظرون اليها نظرة إكبار وإجلال ، إذ أنها أصل الحضارة ومصدر كل ثقافة وثروة . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لابناء هذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودوهم بأسلحة من العلم واستقامة الفهم . فذاناؤس وككربس وفيثاغورس شهب ثاقبة فى سماء

الثقافة الاغريقية ، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين ؛ حملوا الى اليونان بذور المعرفةورسالةالحق والحريةوالجمال . ولقد وجدوا الاغريق مقيدين بالاغلال والتقاليد ، فحطموا هذه الاغلال وأطلقوا الاغريقي من قيود عبوديته وقضوا على التقاليد حتى شب الانسان الحق ونما الفكر الحر وتجلت عظمة رسالتهم فى مخاطبتها أسمى العواطف البشرية .

وتكاد لفظة « مصر » ترادف في معاجمهم كلمة «ذهب» ، وأخالهم على صواب ، إذ صارت مصر وطناً ثانياً لهم ، والنيل ينبوعاً فياضاً يعب منه كل يونانى ويروى منه غلته ، وما دام أمثال كوتسيكا وبناكى وأفيروف وغيرهم من ملوك المال ، يغذون خيالهم بما جمعوه من ذهب مصر وما وهبوه لامتهم من المنشآت العلمية والعمارات البحرية والمستشفيات والملاجىء ، حتى لقد حدث فى إحدى السنوات أن ظهر عجز فادح فى ميزانية الدولة فاسرع « يونانيو الاسكندرية » بالاكتتاب لسدهذا العجز ، وبلغ مجموع التبرعات نيفاً ومليوناً من الجنيهات !

فى المتحف الوطنى

خواطر وتأملات

« من يقدس آثار قوم فعليه ألا يقربها
الا راكعا » . ريتان

قصدت إلى دار المتحف الوطني وفى نفسى صور عديدة من عظمة الفن الاغريقى وماخلفه المثالون من نفائس ، هى ذخيرة مجد هؤلاء الاقوام الذين بسطوا فنهم خلال الاجيال الغابرة . فاذا بباب المتحف تمثال جبار الحجم لهرقل كبير الآلهة ، وقد خلع المثال عليه كل مايصل اليه حسه وشعوره من تخيل صفات الالوهية . ووقفنا خاشعين نجيل النظر فيه ، لا لجلال الرمز الذى يرمى اليه ، ولكن للبراعة التى وصل اليها المثال . فقد كان الفنان الاغريقى اذا مانحت تمثاله ، خلع عليه وشاح عبقريته ، ونفخ فيه قوة من روحه ، حتى جاء الفن الاغريقى مجموعة عبقريات هى من أجل الاعمال الانسانية التى ترمى الى المثل الاعلى وابراز الفكرة الروحية ومحاولة الوصول الى الكمال .

وفى المتحف قاعة للتماثيل والموميات المصرية ، فلنمض اليها قبل غيرها ، لنمجد عبقرية أجدادنا الفراعنة الذين حكموا مصر

والشرق آلاف السنين . فقد كانوا أساتذة الشعوب . وعنهم أخذ الاغريق فكرة نحت التماثيل ، وكل ما تفيض به هذه القاعة الفرعونية من فن وعلم ودين ، انما نقله اليونان الى بلادهم مع ما نقلوه من حضارة مصر ورسالتها الروحية العليا .

وأشعر برجفة رهيبة وأنا أجتاز صفين من النواويس الذهبية، يرقد بداخلها فراعنة مصر ، مولين وجوههم شطر الشمس، حيث يتربع أمون على عرشه العظيم . ولكن لاشيء غير الصمت العميق المتواصل ، الذى لاتسمع خلاله سوى همسات خافتة ، ولا ترى الا عيوناً زائغة ، تحاول أن تخترق النواويس لتهتك سرها الخفى، وأشباحاً جاءت تستأنس بأرواح جدودها في سماء الغربة . ولعمرى أن هذه المومياءات التى أقلقوا مضجعها وحرموها لذة البقاء فى أرضها ، تكاد تتحدث إلى فى صمتها المبهم ، بألاوجود لغير العدم ولاحياة الا للموت ...

ودرجت بى ساعة تأمل أسلمت فيها نفسى إلي طائفة من الخواطر ، ورحت أقارن خلالها بين الفن عند الفراعنة وبينه عند الاغريق . ففى مصر كانت جذوة الفن يذكيها الدين حرارة وحماسة، فكان المثال الفرعونى يفنى مواهبه المشربة بحب الجمال فى ابراز فكرة الالوهية واضحة مصقولة ، مهتدياً بسراج ضميره الاوحد وشعلة روحه المتوقدة . فنفذ إلى ماوراء الفكر ، وماوراء المادة، وعبر عن محاسن البعث بقصائد منظومة من الحجارة أو المرمر أو

الطين ، حتى إذا ما عبر جسر الحياة وتحول الزمن إلى خلود رأى فنه خالداً خلود روحه في العالم الآخر .

أما الاغريق فليسوا على الضد من ذلك . وليس فى وسعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نلمس الصلة الوثيقة القائمة بين فننا المصرى وبين فنهم . وعندى أن الغرض الاساسى الذى أوحى الى المثال الاغريقى إقامة تمثاله ، هو الاهتداء الى الله الاوحد ، فاقتبس نظرية الالوهية في الفن من الفراعنة ، حتى إذا ما تطورت الفكرة بتطور الحياة من نشوة دينية الى حضارة مادية ومن صراع عنيف إلى انتصار باهر على العقل الاسيوى ، وجد الفن قدرته التامة فى التعبير فى شخص أبولو ، الانسان الالهى الرائع ، نتاج خيالهم القومى المزدان ببدائع التصور فأضفى عليه المثالون جميع معانى الحكمة والعقل والفضيلة ، والصفات السامية التى رفعته الى مرتبة الاله الاوحد .

فى جميع التماثيل والدمى المعروضة بمتحف أثينا ، ظهر جسم الرجل أمام أبصارنا عارياً عرياً يدفعنا إلى الاعجاب به وعبادته ، بعكس تماثيل المرأة فقد بدت متدثرة فى ثيابها ، محافظة على تقاليدها الشرقية . فجسم الرجل كان هدفاً لعين الفنان ، يراه فى ميادين الالعاب الرياضية ، يمارس ألواناً من المصارعة والوثب والعدو ، وفى المستحمات يتسابق فى السباحة ويتبارى فى القفز إلى الماء . وكانت عبادته لجسم الرجل الرياضى والاعجاب ببطولته

تدفعانه دائماً إلى السمو به لمكانة هى أقرب إلى الكمال ، فنفخ فى تمثاله روح فنه وخلع عليه وشاح عبقريته ، وعنى بابراز تكوين جسمه واتساق حركاته وتناسب قوامه ، وكان يعزف عن أن يصور رياضياً قبيح الهيئة مهما سمت بطولته وبلغت مكانته .

ولما كانت المرأة محوطة بسياج من الفضيلة والعواطف الفطرية الساذجة ، فقد استعاض المثال عن عريها بابراز جمال ثوبها وانسجام ذراعيها ومسحة من جمال خاشع يتقطر من ثنايا وجهها .

فعظمة الفن الاغريقى كانت تصحبها دائماًصفتان أساسيتان، هما التشبع بعبادة الجمال والتأمل فى الطبيعة بالعين التى تلقى ظلا على التمثال ونوراً فى ضميره ، والحرص على إبراز المعانى العميقة المستترة وراء الاشياء .

والفن الاغريقى ولو أن مادته رخيصة فانه يمتاز بطابع الصدق وتصوير الانسان على حقيقته وتعريفه نفسه بنفسه ، مع محاولة كشف أسرار الطبيعة والوقوف على قوانينها ، متخذاً من الجسم العارى أداة لتفسير هذه الالوان .

أما الفنان الفرعونى فكان فى شبه نشوة روحية عميقة . صرفه التفكير فى مستقبله عن حاضره ، فمجد الروح والقلب وعبادة الآلهة وصور البعث والخلود برموز مطموسة ، فهو كمتأمل للحياة من خلال نظرته الروحية النافذة إلى صميم الكون ، لم تكن تعنيه سوى فكرة الخلود . خلود الجسم وخلود العقيدة وخلود الآلهة . ولكن الفن الاغريقى عندما تحرر من سيطرة

الروح الفرعونية وتمرد على سيادة العقل الهندى الغليظ ، أستطاع المثال أن يخلق آلهته كما يحب ويهوى ، فهى غاضبة أو رحيمة ، جائرة أو عادلة ، تتناسل وتأكل كمخلوقات إنسانية ذات أخلاق عالية . أما المادة فعبر عنها بالحضارة ، وعبر عن العقل بالمنطق . حتى جاء مزاج الاغريق الفنى ، خليط من الروح والمادة ، والخلود والحياة ، والاستقرار والحركة .

...

وأن ما خلفته الحياة الادبية لليونان أعمق وأروع من التراث الفنى الذى ابتدعته عبقرياتهم الجبارة . وكما أن صورة «الجيوكندا» التى رسمها دافنشى تعتبر حداً بين الفن الحديث والفن القديم ، أو بمعنى آخر أنها تعد من الوجهة الفنية الصحيحة معقدة إذا قورنت ببساطة الفن الاغريقى ، كذلك نجد هذه الفروق نفسها إذا قارنا بين آدابنا الحديثة وبين الادب الاغريقى . ذلك أن كتاب الادب الحديث قد يخلطون الكثير من تجاربهم ومتناقضاتهم فى الحياة بانتاجهم الفنى . أما الاغريق فقد يكون إنتاجهم أقرب إلى الكتب المقدسة منه إلى أية آداب أخرى . وفى شعرهم تتجلى روح البساطة والسهولة والصراحة من حيث الاداء والتعبير ، فقد عاشوا ككتاب أسفار اليهود ، فى عوالم فطرية عذراء ، وبذا استمدوا روح مادتهم من الفطرة نفسها .

وقد حاولت الشعوب المتعاقبة أن تخلد آثارها الادبية كما تخلد التماثيل الحجرية أو البرنزية ، ولكن لم يوجد بينها من

ابتكر الفن الادبى وخلده كالاغريق ، ولا من خلق من العدم أنواعاً متباينة من الشعر والبيان والخطابة والفلسفة مثلهم . فالاغريق لم تكن أمامهم نماذج أدبية يقتدون بها ، ولا معلمون يرشدونهم إلى القيم الصحيحة للفن الادبى. وقد فشلت الامم الاخرى فى أن تفرض سيطرتها على آدابهم كما فرضوا هم سيطرتهم على الرومان . ومن العبث أن نقول إن الفراعنة كانت لهم آداب بالصورة التى وجدت بها عند الاغريق ، فليس هناك أدب مصرى قديم خليق بهذا الاسم ، وكل ما خلفته الحياة العقلية للفراعنة هو طقوس جنائزية، وحكم مشربة بروح الدين يضمها كتاب « كالموتى ». وقد كان من المنتظر أن يبدو فى فجرهم الادبى خشونة وبداوة ، ويد ترتعد من القلم . ولكن الشعر الاغريقى خرج إلى العالم مكتملا ناضجاً كما ولدت آلهة « الميثولوجيا » . مثلا أعلى يفرض احترامه على الجميع . وقد ابتكر الاغريق أدب الملاحم الشعرية والبحور والاوزان ، وتفجر الالهام والوحى من عقولهم ، وهذا هوميروس ، ولد وفى دمه أسرار الفن الادبى الذى خلد كتبه على ممر الاجيال .

والكاتب المسرحى الذى يعمد اليوم الى كتابة مسرحياته ، يجدها أكثر سهولة ، لانه يعرف القالب الفنى الذى يصب فيه موضوعه . أى يعرف البداية والنهاية والتقسيم إلى فصول ومناظر وما اليها من لغة الحوار وقانون التمثيل ، فهو يسير على نهج معروف . ولكن كتاب الدرامات الاغريقية لم تكن أمامهم

قواعد ينسجون عليها ، فهم عباقرة ، مبتكرون حقاً لهـذا النوع الفذ من الصور الادبية .

وطابع الصدق هو أظهر الميزات للادب وللفن الاغريقي . فالاغريق لم يكونوا أقل كذباً منا ، ولكنهم أرادوا أن يصوروا العالم على حقيقته، وبذا استطاعوا إرشادنا الى إدراك كنه الفلسفة والعلم . والصدق عندهم معناه النزاهة الادبية والتخلص من الكلفة والصنعة ، وهو سجية الفنان الذى يترك شخصيته إذا ما واجهه منظر ملك عليه لبه ، فيشغل به عن نفسه .

ولا توجد أية علاقة بين هذا « الصـدق » وبين المذهب الحـديث المسمى « بالواقعية » التى تسيطر على الكـاتب فتدفعه الى أن يصور الحيـاة فى رداء قاتم . فالكتاب الواقعيون يعمدون الى وصف مالا يرغب فيه القارىء ولا يحبه ، وقد أدرك الاغريق حكمة بروست قبل أن ينطق بها ، وهى أن الفن يجب ألا يكون سخيفاً كالواقع . فابتعدوا عن وصف آلام البشرية ومساوئها . ولذا نجد أنه على الرغم من طابع الصدق الذى تتصف به مآسيهم ، فهى لا تترك فى النفس أى شعور بالحزن . وقد أدرك كتابهم مصائب الكون ومتاعب البشرية وآلام الناس ، ولكنهم عند ماوصفوها ، كان وصفهم فى شىء أقرب الى فلسفة الجمال منه إلى النواح واستثارة كوامن الالم الدفينة . أضف الى هذا ، أن الاغريق كانوا يعمدون إلى التخلص من الحواشى والتعليقات . فالايجاز هو أجمل مافى آثارهم ، وهذا «المبرد الادبى»

الذي استعمله الاغريق ، إنما هو في عصرنا الحاضر أقل الادوات استعمالا .

ولا أغالي اذا ماذكرت أن الاغريق وجدوا لكي يصفوا الكون والحياة ، لا ليقدموا اليناد روساً في الاخلاق أو العواطف أو التصوف . وكانوا يبتعدون عن الارشادية وفخامة اللفظ ، ولم يعرف أنهم قلبوا الحقائق وطمسوها لكي يبرزوا جمال الالفاظ . ومن سر قوتهم في الادب أيضاً ، اتصالهم اتصالا مباشراً بالنفس دون حاجة الى الغموض ، أو الاسراف في العواطف ، أو الاطناب في الخيال . ولنأخذ الياذة هوميروس التي وصف فيها حروب ترواده ، فانه لم يرجح كفة أحد الفريقين ، بل انسلخ من عاطفته ونظر الى المنتصر نظرته الى البطل الذي أذهلته الخسارة ، فلم يعد يفكر في غير الانتقام .

لقد نظر الاغريق الى العالم من ناحية غير الناحية التي تنظر منها اليوم ، فكانوا أكثر شعوراً منا بجماله . وكما يفوق الناس بعضهم بعضاً في تمييز الالوان أو الاصوات ، فكذلك تفوقوا علينا من وجهة الاسلوب الذي عالجوا به مآسيهم . فكان أسلوب هوميروس مثلا يفيض أسى ولوعة ، وربما كانت نظرته الى الحياة أكثر تشاؤماً منا . غير أنه استطاع على الرغم من مواجهة الحقيقة واعترافه بقسوتها ، أن يصبغ أسلوبه بصبغة هي أقرب الى فلسفة الجمال منها الى الصراخ والشكوى .

والواقع أن الاقتراح الذى أدلى به مسيو دندراميس بشأن انشاء قسم فى الجامعة المصرية لدراسة الادب الاغريقى ، على جانب من الصحة، وقد يرى البعض أن في دراسته عرقلة فى سبيل النهوض بالادب العربى المعاصر . ولكن إذا كان نمو الادب العربي قوياً وصبغته القومية تقاوم تأثير آداب الامم الاخرى فيه . فقد نستعين على موازنته وإظهار نواحى الضعف فى جوانبه إذا ما درسنا إلى جانبه أدبا قديماً فى مستواه . فالعالم لم يزل مديناً بعد للعقلية الاغريقية، وماخلفته من تراث هو رمز جمال العالم وعنوان ثقافته .

استامبول

« مدينة للمآثر والاسرار »
لونى

تبدى الدردنيل في هدأة الفجر وسكونه مقبضاً موحشاً ، وكنا قد حرصنا على أن نزايل مخادعنا مبكرين حتى نشهد الباخرة ساعة اجتيازها الدردنيل . ففى هذه البقعة الجهنمية من البحر استشهد عشرات الالوف من الحلفاء خلال الحرب العظمى ، حين كانوا يظنون أنهم يحاربون تقديساً لمبادىء الحرية وإعلاء كلمة الحق ، لامدفوعين بمطامع الساسة وغريزة التوحش الاستعمارى.

ووصلنا إلى مضيق « جناق قلعة » فوقفت الباخرة فى عرض البحر ، وصعد اليها رجال الحكومة الكمالية ومراقبو جوازات السفر، وبعد أن استغرقت مهمتهم فترة وجيزة ، أذنوا لنا باستئناف السير ، فاذا على اليسار رسم الشعار التركى فوق أديم الارض بخطوط من الجير الاحمر ، وعلى اليمين خطت بحروف واضحة : سنة ١٩١٨ .

وحين نتخطى « جناق قلعة » الى « جاليبولى » ، ذلك الحصن المنيع الذى ارتد الاسطول البريطانى منهزماً أمامه شر

هزيمة ، تتوارد الخواطر على ذهني تباعا ، فكل مانراه أمام أعيننا ، يفيض في النفس لوعة وأسى،وهوإن كان مبعث الذكريات الممضة عن الحرب وأهوالها ، فان أمواجه تكاد تتحدث الينا في فورتها واصطخابها عن الضحايا والاموال التي اضطجعت في جوفه . .

حانت ساعة الأصيل،فحرصت على أن أحتل مكاني في مقدم الباخرة لأملي جمال استامبول ، وأسراب الطيور تغطي وجه البسفور ككتل من بياض الثلج ، فاذا باستامبول تتعالى في الافق جسيمة هائلة ، كأنما علقت أطرافها في السحاب ، على حين تترامى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات الزوارق ، ناشرة شراعها الفضي كجناح طير الرخ ، حاملة طوائف من العشاق والمتنزهين يضجون ويصخبون . الا أن المدينة الخالدة كانت تبدو كأنما تسمو خلوداً فوق مظاهر الحياة العابرة ، وقد نفرت منها قباب شاحبة البياض ، ومآذن متراشقة في دقة الحراب ، متغيرة ألوان قننها الرفيعة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بتغير أنوار القمر والشمس عليها ...

ياجمال استامبول ! لقد جمعت الطبيعة عبقريتها في هذه البقعة الخالدة من جنان الارض ، فكان الالهام والروعة والجلال ، وكانت الحياة الشاعرية والتأثر بالخيال ، فلما جاءها قسطنطين خر على وجهه ساجداً ، وبنى عاصمته فوق هذه التلال السبعة ، حيث تلتقي آسيا بأوربا تتناظران وتتنافسان ، ليجعل منها روما ثانية

ينافس بها عاصمة المسيحيين . وهى تضم اليوم بين جوانبها من ألوان الجمال الصافى والانسانية الحقة وأحلام الخلود أكثر مما تحويه أية مدينة أخرى عاشت على سطح الارض ، فقد تعاقبت عليها عواصم ثلاث : ترواده وبيزنطة واستامبول ، فشهدت عظمة الرومانيين ومجد البيزانطيين وخلافة المسلمين يوم أن استقر بها آل عثمان وامتد منها سلطانهم الى أواسط البلقان وقلب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا ..

ماذا نرى أولا فى استامبول ؟

أجاب الدليل التركى : المساجد قبل كل شىء ..!

وهل تساوى استامبول شيئاً بدون أيا صوفيا والسليمانية وبايزيد والفاتحية وجامع السلطان احمد الذى شيده المهندس المعمارى سنان باشا ، بعضها محلى بالفسيفساء والخزف الملون وقيشانى كوتاهية ، والبعض الآخر مموه بماء الذهب ، وهى جميعاً من آيات فن العمارة الاسلامية ؟

تلك المساجد التى كساها القدم ثوب القداسة والجلال ، مافتئت منذ أجيال تتوج استامبول بقبابها الشامخة ، واسمة أياها بذلك الطابع الدينى العريد الذى يميزها من سائر مدن أوربا. فكان الشعب المعتكف فى ظلال تلك المساجد شعباً مؤمناً بكل مافى الايمان من حرارة العقيدة ، ومن شرفات تلك المآذن السامقة كان المؤذنون يدعون المؤمنين الى الصلاة بأصوات ملائكية كأنها هابطة من السماء ، فتشيع عذوبة هذه الاصوات في قلوبهم ، فكرة

الاتصال بالله وتنسيهم أباطيل العالم الفانى ، ساكبة فى قرارة نفوسهم قليلا من أكسير الخلود .

فلنذهب اذن الى أياصوفيا !

تلك الكتدرائية المهيبة العظمة ، التى حولها المسلمون فى بدء غزوهم القسطنطينية الى مسجد تقدس فيه كلمة الله وشعائر الدين الحنيف ، فلم يطمسوا من معالمها سوى الصلبان والنقوش البيزنطية والرسوم النصرانية التى كانت تزينها . أما الهيكل فأبقوه على حالته ونصبوا القبلة منحرفة قليلا عن موضعه لتتجه الى ناحية مكة . ولكن حكومة الكماليين التى قضت على كل ماءت الى العروبة والاسلام بصلة ، ردت البضاعة الى أهلها وأعادت أياصوفيا سيرتها الاولى ، فأزالوا طبقة الكلس . أستغفر الله . بل انتزعوا اللمع المذهبة المحفور عليها بالحروف الكوفية أسماء الله الحسنى واسم نبيه الكريم والخلفاء الراشدين ، ليبرزوا الرسوم النصرانية بحجة تحويل المسجد الى متحف للفن البيزنطى والثقافة البيزنطية ...

ولكن،هل هذه هى المرة الاولى التى رفعت فيها طبقة الكلس عن جدران أياصوفيا ؟

لقد حاول الدليل أن يبدد أثر الشك من نفوسنا ، فذكر أن السلطان عبد المجيد سبق أن عهد الى الفنان الايطالى فوساتى أمر إصلاح المسجد وتنسيقه ، فأزاح فوساتى الكلس وأبرز الرسوم النصرانية أمام الناس وكتب عنها مجلداً ضخماً،ثم احتجبت الرسوم

مرة أخرى وبقى كتاب فوساتى خالداً بما حواه من دقة الوصف وروعة الفن .

رفعت عينى الى العمد المرمرية التى تنهض عليها قباب أياصوفيا ورحت أحدق ملياً في الجدر المرصعة بالموزاييك والفسيفساء الملون، على حين كان الدليل يفسر مايغلق علينا فهمه ، وكانت أشعة الشمس تتسرب من النوافذ الزاهية قانية كلون العقيق ، فاذا بخيالات أباطرة الرومان وخلفاء المسلمين تترقرق على الجدر ، وتنعكس في الذهن الى حقائق وأشباح ، بحيث يستعرض المرء الادوار التى مرت بالمعبد العظيم ، ويستقرىء الحوادث جيلا جيلا ، فيرى بعين الخيال الامبراطور الرومانى جوستينيان وهو يضع بيده الحجر الاساسى تخليداً لذكرى القديسة صوفيا ، ويرى جموع البيزنطنيين وهم يلتفون حول أسوار الكنيسة مرحبين بدخول العثمانيين ، كما رحب القبط بدخول العرب مصر ، صارخين فى وجوه الرومانيين « العمامة ولا التاج البابوى » .. ويلمح طيف الرجل الخالد محمد الفاتح وهو يحكم بالعدل والمحبة ويسود شعبه بالحكمة واللين ، فيحترم عقائد المسيحيين ويصلح ما بين طوائفهم، ويحل السلام والسكينة محل المشاحنات الفلسفية والمنازعات اللاهوتية ، ويتخيل السلطان بايزيد وهو يترفع عن أن يمس حرمة الكنائس والبيع ليحولها الى مساجد، فيشيد نيفاً ومائة مسجد ، الى جانبه السلطان سليمان القانونى الذى انتصر على المجر وغزا البلقان وطرد من الشرق فرسان هوسبيتال وأخضع كارلوس

الخامس وهو يطارده الى أسوار فينا ، وعلى سلم المحراب يقف السلطان سليم بعد أن قهر العجم ومصر وزبح من المماليك لقب « خليفة المسلمين » .

كانت هذه الصور وأشباهها تطوف بمخيلتى ، فرحت أوازن بين أياصوفيا أيام كانت بيت الله ورمزاً لمجد الأتراك ولانتصار الاسلام الحاسم فى قلب أوربا ، وبين حالتها الراهنة وقد تحولت الى كنيسة ملئت ساحتها بالدمى والتماثيل ، ولم البث أن رددت قول حافظ ابراهيم:

أياصوفيا حان التفرق فاذكرى عهود كرام فيك صلوا وسلموا
اذا عدت يوماً للصليب وأهله وحلى نواحيك المسيح ومريم
فلا تنكرى عهد المآذن أنه على الله من عهدالنواقيس أكرم

فهل كان الغيب مكشوفا للشاعر وهو يجود بدمعه ، فكانت صرخة داوية فى سبيل الاسلام وفى سبيل مجده الذى لا يبلى ؟ ليت شاعر النيل ينهض من رمسه ليرى كيف دق الكماليون أعناق أياصوفيا وأطفأوا شعلة الايمان تحت قبابها حتى زاورتها الشمس وصبأ عنها المؤمنون .

لقد كانت شعوب أوربا فى غاراتها الحربية على تركيا وفى مؤامراتها ودسائسها فى البلاط العثمانى ، ترمى الى انتزاع أياصوفيا من أيدى المسلمين لتعيدها سيرتها الاولى ، كنيسة للمسيحيين ، وكانت الجيوش الروسية فى زحفها لمهاجمة استامبول تتلقى الاوامر صريحة برفع الصليب فوق قباب أياصوفيا . ولكن

أياصوفيا بقيت مسجداً مقدساً للمسلمين ، وتحطمت على صخور البسفور كل الجهود التى بذلت للاستيلاء عليها وتحقيق الحلم الذهبي الذى كثيراً ماداعب فكر الغربيين .

على أن ماعجزت عنه روسيا والبلقان بجيوشها المسلحة خلال القرون الغابرة ، حققته حكومة الكماليين بجرة قلم ، فاغلقت أياصوفيا فى وجوه المصلين المسلمين، وأخفتت فى جوانبها أصوات المؤذنين ، لتبرهن للشعوب الاوربية على أن فى عملها مظهراً من مظاهر التسامح ودليلا على زوال التعصب من نفوس أبناء تركيا الجمهورية .

. . .

وفي غير أياصوفيا زرنا السليمانية ، عروس فن العمارة الاسلامية ، بل لؤلؤة استامبول وياقوتتها ، بناه السلطان سليمان القانونى عقب عودته ظافراً من غزو المجر ليفوق أياصوفيا سحراً وجمالا . فارتفاع قبته نحو ثمانين قدماً وأرضه مغطاة بالرخام الناصع ، تحف بنوافذه قطع الخشب المنقوشة بالحفر ، والقيشانى المموه بالالوان الزاهية ، تعلوها الكتابات المشجرة . وهى جميعاً من صنع الفنان التركى ابراهيم السكير ، إذ يروى أنه كان لا يتأنق في عمله ولا ينتزع تلك الآيات الفنية من صدى زفراته الا إذا كان ثملا غائباً عن رشده ، فجاءت رسومه كلحن موسيقى ساحر ، انسجمت أنغامه وكونت وحدة ناطقة، تعبر عن روح وقاد وشعور ذاتى ملهم .

. . .

ان استامبول القديمة وروعة مجدها التاريخى لتتمثل بوضوح في دارين للعاديات . أولاهما « متحف الانكشارية » الذى يعد الثانى من نوعه في العالم بعد متحف الانفاليد بباريس ، ففيه أسلحة أثرية ، وخوذات ، وأسلاب ، وبيارق ، ورسوم تمثل أول جندى عثمانى دخل استامبول من أسوار « أدرنة قبو » ، وأول فارس وطئت أرضها حوافر جواده ، ومناظر أخرى للانكشارية تمثلهم بملابسهم الفضفاضة الزاهية الالوان ، فى حلقات الذكر أو مجالس القضاء أو محافل الموسيقى . والانكشارية هم الذين بلغ من قوة نفوذهم السياسي ، أنهم لما غضبوا على السلطان عثمان الثانى ، اعتقلوه فى حصون « يدى قوله » وحكموا عليه بالاعدام خنقاً لان العرف المتبع كان يقضى بعدم اهراق دم السلطان وسقوطه على الارض . وكان عثمان الثانى قوى البنية ، ضخم الجثة ، فاستغرقت عملية الخنق زهاء ثلاثة أيام ، ثم مثلوا بجثته بأن ربطوها فى حبل وجرها أحد فرسانهم من ساحة السلطان احمد الى البحر .

وخصص المتحف الثانى للعاديات القديمة ، كالتابوت الرخامى الذى أعد ليدفن فيه الاسكندر الاكبر ، وقد دون على جوانبه تاريخ الاسكندر وفتوحاته . وعرضت فى الطابق الثانى مقتنيات السلطان عبد الحميد وطرفه الفنية، ولعل أبدعها صنعاً نموذج نحاسي صغير لمسجد كانت الحكومة البلغارية قدمته اليه هدية باسمها ومجموعة نفيسة من الاواني السكسونية والبللورية أهداها غليوم الثانى ،

فعلى كل صحن أو آنية منظر يمثل الطبيعة أو تقدم الحضـارة فى المانيا .

على أن طابع استامبول القديمة يتمثل أيضاً فى حصـون جوستنيان والاسـوار البيزنطية التى اقتحمها محمد الفاتح ودخل منها إلى المدينة ، وصهاريج المياه التى شـيدها الرومانيون تحت سطح الارض ، وكنيسة القديسة أيرينى التى اقتبس منهـا بناء أياصوفيا ونظام زخرفتها ، والمسلة الفرعونية القائمة فى ميـدان جامع السلطان احمد ، كأنها فى ارتفاعها الشامخ ، تتلووصية الدهر من كتاب الخلود ...

بعد أن فرغنا من زيارة المساجد والتكايا والمقابر والمتاحف وما خلفه المسلمون فى هذه الارض الخـالدة من دلائل المجـد والعظمة ، عرجنا على بعض القصور التاريخيـة ، فبدأنا « بتب كابو » الذى بناه قسطنطين داراً لملكه ، فلمـا غزا العثمانيون عاصمة قسطنطين استولوا عليه فيما استولوا من الـكاتدرائيات والقصور والحصون ، واتخذه محمد الفاتح مقر خلافته وموطن عرشه .

وتعرض فى « تب كابو » بعض العروش التي غنمها آل عثمان فى خلال غزوهم الممالك والامصار ، كالعرش الذى نقله السلطان سليم من مصر ، وأيوان فارسى مرصع باليواقيت والعقيق ، وكشك يطلق عليه « كشك بغداد » ، وعشرات من التيجان المرصعة بالجواهر والاحجار الكريمة وفصوص من الزمرد والياقوت ، كانت تزين

فيما سلف عمائم الخلفاء ،ليبهروا بها الرعية ، ويغزوا ببريقها قلوب الجوارى والحريم .

تطل سراى « تب كابو » على بحر مرمرة ،وهى مكونة من عدة دور شيدت في عصور مختلفة منها ما كان معداً لاجتماعات الوزراء أو الصدر الاعظم ومنها ماكان مخصصاً للحريم أو لاقامة السلطان . وفي الدار التى كان يعقد فيها الوزراء اجتماعاتهم وقع نظرنا على مقعد مزركش بالقطيفة الحمراء ، تعلوه كوة صغيرة ، فكان السلطان يجلس وراءها خفية لينصت الى مناقشات وزرائه دون أن يفطنوا الى وجوده . وكما كان السلطان يهوى الاصغاء الى حديث غيره ، فقد كان كذلك يبغض أن ينصت أحد الى حديثه ، ففى مخدعه الخاص ، شاهدنا سريراً ذا أربعة عمد طويلة متصلة بالسقف ،والى جواره حنفية تصب الماء في حوض من رخام ، فاذا جلس السلطان يتحدث الى زواره فتحت الحنفية ليحول صوت تدفق المياه دون سماع شيء من الحديث فى خارج القاعة .

وكانت فى حديقة القصر بركة دقيقة الصنع ، لتسبح نساء السلطان وسراريه فيها ، وهذه البركة تطل عليها غرفة بها نافذة صغيرة من الزجاج فكان السلطان يجلس خلفها ليمتع عينيه برؤية أجمل نسائه ، وهن يسبحن فى ضوء القمر أو نور الفضاء ...

ولما غشينا «قاعة السفراء» قص الدليل علينا قصة السفراء الذين كانوا ينتظرون فى هذه القاعة عدة أيام حتى يؤذن لهم بمقابلة السلطان ، وفى خلال هذه الايام القلائل يكون رجال القصر قد

قتلوا أمامهم عشرات من الناس ، بقصد أرهابهم قبل المثول بين يدى خاقان البرين والبحرين !

وفى القسم الخاص بتحف آل عثمان ومجوهراتهم، توجد مجموعة من صناديق الخزف تعد الاولى من نوعها فى العالم ، ومجموعة أخرى من السيوف والخناجر المرصعة مقابضها بالاحجار الكريمة والحراب والخوذات ، تتوجها شارة الاسلام : الهلال والنجمة . ومتزين كانت كاترينا امبراطورة روسيا قدمته هدية لزوج السلطان عبد الحميد، وخزانة البردة الشريفة، وسيفا عثمان وأبى بكر ، ورداء تيمورلنك، ويد يوحنا المعمدان وقسم من جمجمته ، وغير ذلك من الطرف التى يعجز القلم عن وصفها والفكر في استيعابها .

...

فى أبهاء هذه القصور ، كما فى رحاب الجوامع ، فن اسلامي عميق يشملنا بعطره ويشيع في نفوسنا ضروب الاحساس الى حد نؤثر أن نصبح عثمانيين في نظرتنا الى الفن والى الاخلاق الفاضلة من أن نظل متمدنين فى تطفلنا على الحضارة الاوربية . فالفن الاسلامى الحقيقى لم ينم على شواطىء دجلة والفرات، ولم يولد فى مهاد بغداد الشهوانية ، ولا فى أحضان طهران الفلسفية ، ولا فى أسواق دمشق التجارية ، لكنه ترعرع وبلغ أسمى ذروته على ضفاف البسفور ، يروح به العثمانى عن مشاعره المحلاة بالفضائل، ويستأثر به فى داخل بيته كأداة للرفاهية واللذة، لان الفن عند الاتراك كان نوعاً من النعيم الدنيوى قبل أن يكون رمزاً

للحضارة أو الثقافة الدينية . فهو ماثل في مآزر الهوانم المزركشة بالقصب ،وفي تخطيط القفاطين الحريرية،وفى خوذالفرسان ودروعهم وفى الاوانى النحاسية المكفتة بالذهب ، والزجاج الملون المطلى بالميناء بل ،أن أثره ليبدو واضحاً جلياً فى تنسيق القصور الغارقة في الحدائق ، وفى موسيقاهم التى تنشر في الجو تموجات عواطفهم وتحمل الاثير اهتزازات نفوسهم المشربة بالاناقة والذوق السليم !

. . .

كانت زيارتى لجامع أيوب طافحة بعطر الذكريات ...

قصدته ذات أصيل ، وخيوط الشمس قد انتشرت فوق الصخور ، وانعكست أشعتها الغاربة على عشرات من زجاج النوافذ وأبراج القباب ، كأنما هى آثار حريق شب فى حقل حنطه !

وللجامع شهرة قديمة تعود الى أيام أن كان سلاطين آل عثمان يتوجون فى محرابه ، ويقلدون سيف عثمان الاول بعد أن يطوقهم بحده « حاج بكتاش الكبير » زعيم الطائفة الدينية التى تحمل هذا الاسم . وتزور الفتيات العذارى مقبرة أيوب الانصارى عادة فى اليوم السابق لزواجهن ، والصبيان قبل ختانهم ، ويكتظ صحن الجامع بأسراب الحمام الذى يقترب من الزوار فى دعة وطمأنينة ليلتقط الحب من أيديهم .

وتقوم مدافن استامبول على مقربة من الجامع ، على سفح جبل فى قمته مقهى صغير أطلق عليه «مقهى بيير لوتى» ، إذ كان

الكاتب الفرنسى النابه ، يكثر من التردد عليه مع زميله كلود فارير ، صاحب المؤلفات الرائعة عن استامبول وحياة الحريم. ففى هذه الرقعة الصغيرة التى يكتنفها الهدوء وأحلام السكينة ، يسترد الكتاب والشعراء صفو اذهانهم وتواتيهم عرائس أحلامهم. كم من المرات جاءها لوتى وعلى رأسه طربوشه مستعيراً اسم « عارف بك » وأحياناً «حسام افندى»،فيجلس الساعات الطوال يدخن نارجيلته ويحدق فى مياه « القرن الذهبى » وفى شباب الطبيعة المتجدد،مستسلما للتأمل والخيال العذب ، فاذا لمح عن بعد شبح صديقته الوفية «جنان» ، نهض من مكانه ليشقا طريقهما فى مدينة الاموات ليتعهد بناء مقبرة «مدجة» ويستلهم روح صاحبتها . وفى خلال الطريق يكون قد تحدث الى « جنان » فى مشروع كتاب أو قصة يودعها آلام المرأة التركية . وكان لوتى يفزع الى هذا المقهى المتواضع المطل على مدينة الاموات وعلى قبر حبيبته مدجه ، فيجد فيه مادة الهامه ومهبط وحيه ، وفى أركان هذه الصومعة الصغيرة ، تحوطها أشجار السرو وأفواف الزهر ، أخرج للعالم ثمرة ناضجة من ثمار العقول المفكرة !

وكأن ذكرى بيير لوتى حفزتنى الى أن أحرص فى صبيحة اليوم التالى على زيارة الدار التى كان يقيم فيها بالقرب من «بايزيد» . ففى هذه الدار التى حولتها الحكومة الكمالية الى متحف باسمه . كتب روايتيه الرائعتين « ازياديه والشجيات » ، ووضع عقله وقلبه وتفكيره فى كل سطر من سطورهما ، ودافع عن

المرأة التركية باحترام ، فكان محاميها امام الرأى العام ، وكانت كتابته نوراً لعيون « الاشباح المعذبة » وضياء لعقولهن . حتى بلغ من اعجاب الطبقة المثقفة بكتبه ، ان اودعوها بين أيدى بناتهم وزوجاتهم ممهدين السبيل بذلك للانقلاب الاجتماعى الذى بدت بوادره فى جوانب تركيا .

وهل كان لوتى الا واحد من اولئك الكتاب الموهوبين الذين سرعان ما يفنون ذواتهم فى ذاتية الشىء الموصوف ويتقمصون روحه ويندمجون فى كيانه ؟ فهو فى مصر مصرى عندما كتب قصة « موت أنس الوجود » ، وفى اليابان يابانى يوم أخرج للناس « مدام كريزنتيم » ، وفى تركيا عثمانى حين صور استامبول فى أحط ميولها كما رسمها فى تساميها ورفعتها !

حسبه أن لم تربطه بالاتراك صلة غير صلة الاعجاب بمدنيتهم والتعلق بحضارتهم ، فكرس حياته الادبية للاشادة بمجدهم وعمل على أن يبرز للعالم بعض ما فى هذه الارض من سحر وشعر وولع بكل صنوف الجمال !

. . .

استامبول فى انوار الليل غيرها فى وضح النهار . . . .
انحدرنا من حى بيك أوغلى الى « حدائق تقسيم » حيث تفيض المقاهى ومعازف الموسيقى ودور الغناء بألوان من اللهو البرىء .
و « تقسيم » هو الميدان الرئيسى باستامبول ، اطلق عليه هذا

الاسم لقربه من الخزان الذى يوزع المياه أو يقسمها على المدينة .
فى وسط هذا الميدان نصب تذكارى لتخليد النهضة الكمالية ،
نقشت على جوانبه رسوم تمثل الغازى فى لباسه العسكرى وهو
يقود أنصاره نحو المجد ، ومنظر ثان للنساء التركيات يواسين
الجرحى ويحملن الذخائر ، وثالث للغازى وهو يقدم كتاب
الحرية الى أمته بعد انتصاراته الحاسمة على الحلفاء واليونان .

وغشينا أحد هذه الملاهى الصيفية على ضفاف البسفور ،
نريح أعصابنا المنهوكة على نغمات موسيقى فيها رقة ونعومة
ولرنينها استسلام ورضا . فراعنى أن الفيت المطاعم والمقاهى تعج
بطوائف من الشبان والفتيات ، يضجون ويتبارون فى الشراب ،
فتتعالى الضحكات على صوت زجاجات الشمبانيا وقرع الكؤوس .
فهل كانت الحضارة والتقدم عندهم فى التقبع وارتداء الملابس
الاوربية والتقاتل على الغى والفساد ؟ ما اكثرهم من صغار بالنسبة
الى اولئك الحكماء الذين كانوا ينتظرون هبوط أصوات المؤذنين
لينطلقوا الى بيوت الله ، حتى إذا حانت منيتهم رحلوا الى العالم
الآخر مطمئنين ، كأنهم سائرون الى نزهة جميلة !

تركيا الجديدة

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام

شوقى

ما الذى يجذب السائح اليوم الى استامبول ، بعد أن انتزع الكماليون سرها من صدرها ، واقتطعوا أوصالها من الشرق لتستغرب ، فأثقلوا جوها بأزيز المحركات الآلية وقد كانت تشيع فيه عذوبة أصوات المؤذنين وأدعية المؤمنين الحارة ، ونقلوا منها عاصمتهم الى أنقرة وميناءهم الى أزمير ؟

لم تعد استامبول بحق ـ كما كانت ـ مدينة المنائر والاسرار وموطن السكينة والاحلام ، ولم يبق لاحد رجاء فى أن يراها ثانية ، تحتضن الابطال والشعراء ، وترفرف عليها روح الشرق الخالد ، بل لم يعد لها ذلك التأثير السحرى الماثل فى قصورها البيزنطية ، وما كانت تضمه من مظاهر البذخ والابهة ، وروح الفن الحالم ، المتعطش الى همس القبلات ، وأغانى الحب فى سكون الليل ، تتصاعد من الشرفات المرمرية المقنعة بالازهار ! أو فى بيوتها الاسلامية العظيمة ، تزينها أستار من مكة ، وسجوف حريرية من دمشق ، وتحف من أسواق طهران ، وخشب محفورة عليها آيات

الكتاب . وخزف مموه بالذهب ، وفن شرقى يمتزج فيه النور بالظل ، واللون بالتخطيط ...

لست أنسى عصر يوم قصدت فيه إلى جامع محمود باشا ، وهو نموذج للفن التركى القديم ، فكانت أشجار السرو تلقى ظلالها الرفيعة فى صحن الجامع وتمتد ألسنة الظلال على اليمين وعلى اليسار فتكسب العين نوعاً من النشوة الدينية الفياضة ، وما أن تخطيت عتبة المسجد حتى انبعث من داخله سكون عميق لا حركة فيه ، سكون لا تألفه إلا الاذان التى تسمع فى الصمت ، والعيون التى تعودت أن تبصر فى الظلمة . ووقفت ساعة أحدق فى الآيات القرآنية المحفورة بالحروف الكوفية ، وفى كراسى المصاحف المطعمة بالصدف والآبنوس ، وقد انبثق فى نفسى شعور خفى وتكاثفت أحلام حياتى فى بهرة هذه الانوار المتلائلة ، وبدت أمامى عظمة الاسلام الحقة ، فى انتصاره الباهر على عبادة المادة ، وفى رفع الانسان الى أوج ضميره الحر ، وعقيدته الدينية المقدسة .

ما أعظم الفرق بين تركيا الحديثة المستغربة ، التى دفنت مظاهر الاسلام وراء قضبان المادة ، وبين تركيا القديمة حين كان الجلوس على المقاهى يعد تطرفا ، فيأوى الى أركانها الشيوخ الذين يميلون الى التأمل والاستسلام العذب لاحكام الغد ، ويقضون الساعات الطوال يرمقون الحياة بنظرة ثابتة مطمئنة ، هى وليدة الحكمة والتسليم بالمقدور ، فاذا حانت الصلاة وهبطت أصوات

المؤذنين من الشرفات ، تكون العمائم والقفاطين والذقون المرسلة قد تسللت من البـاب المشرع الى المحراب العارى لترفع صلاتها الى الله ..

وأسفاه ..... لقـد تبدلت الحياة فى جوانب استامبول ، وخبا ذلك النور الوهاج الذى كان ينفح المؤمنين الاتقياء سعادة الفراديس ، واحتجبت هذه الصـور الباسمة ، ولـكن لا كما تختفى العجائب بالعصا السحرية . فمها حاول البرنطون أن يتجهوا شطر الغرب ويجحدوا دين أسلافهم ولغتهم ، فان الروح الشرقية الخالدة لاتزال تطفر من أعماق قلوبهم ، وما فتئت آثارها الباهرة تشيع الاحساس فى صدورهم فيهزهم الحنين الى مجد الجدود.. أولئـك الذين بسطوا الحضارة الاسلاميه تحت ظلال السيوف ، ونشروا كلمـة الله فوق أسنة الحراب ، وحملوا الى شعوب أوربا أنبل مافى الفكر الاسلامى من معنى . فالنعرة الغربيـة ليست سوى ظواهر سطحية تجـذب الـكماليين ببريقها الزائف ، أما القومية الشرقية فهى حقيقتهم الخالدة ...

أذكر أنى سمعت من قاض مصرى فى المحاكم الشرعية كان معى على نفس الباخرة ، أنه لمـا وصل الى جامع أيوب بعمامته وقفطانه ، تهافت المصلون على لثم يده والتبرك بملابسه التى تحمل رمز الاسلام ، وجالت الدموع فى عيونهم وهم يطلبون اليه أن يسمعهم القرآن فى اللغة التى نزل بهـا ، فما كاد يقرأ عليهم سورة

يس حتى كانوا فى نشوة روحية ، وفى شبه حلم بالجنة التى هم بها موعودون !

. . .

فى غير سراى « تب كابو » أتيحت لنا زيارة قصور ضلمة بخشة وشراجان ويلديز ، وغيرها مما حوله الكماليون الى متاحف أو معارض أو مدارس . هذه القصور شهدت ألواناً من الترف الرخو وصنوفاً من المتاع واللذة الآثمة ، وتمرغ أصحابها فى ظلال العز الشرقى البائد ، وغرقوا الى أذقانهم فى أنهر من خمر وغيوم من بخور المسك والكافور ، وجوار وسبايا يجلبهن تجار الرقيق من مختلف بقاع الشرق فيجددن فى هذه القصور العتيقة قواها ، بما فى عروقهن من دماء نقية حارة ...

بعض هذا الترف المائع والشهوات الرخوة ، كان يلهى السلاطين عن ذكر الله وعن الالتفات لشؤون الرعية. ولعمرى أن المساجد والتكايا ودور العبادة ، أقامها الخلفاء لاحباً فى العبادة وذكر الله ، انما ليصرفوا بها الشعب عن مظالمهم وما كان يجرى وراء أسوارهم من المتاع المحرم ، ولتكون زلفى الى رب البيت كى يغفر ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر ...

وبدلا من أن يرى المسلمون خلفاء نبيهم الكريم متنقلين فوق صهوات جيادهم من تونس الى الافغان ، ومن بلاد المجر الى جزيرة العرب ، آثر الخلفاء الانزواء فى داخل قصورهم ، فهجروا الجهاد فى سبيل الله من أجل شهوتهم للمرأة ، وتهافتوا

على أسرة البذخ يروون كل ما فى أجسادهم من عواطف شهوانية، حتى أفنوا قواهم وأراقوا حيويتهم . . أما الشعب فلم يأبهوا لمصالحه ، بل عهدوا بها للوزراء والولاة والحكام ، فساموا الناس شر عذاب وراحوا يجبون الضرائب بالحق والباطل ليسدوا مطالب القصر وغوانيه ويكفلوا نفقات العرش والخلافة . حتى الاغوات والخصيان تجاوزت سلطتهم كل السلطات ، فرفعوا سيف الارهاب وبعثوا أساليب عصور الظلام ، فدرست معالم الحرية ونقص مجد الدولة بعد أن استهدف الشعب لاشد ضروب العدوان ، وتفشت الجاسوسية فى الجيش وفى المرافق العامة ، وأصبحت تركيا بحق كما أطلق عليها الساسة « الرجل المريض »، وهذا مادفع الشباب الى أن يتقدم بالثقاب يلهب به برميل البارود، فتنشب الثورة، ويطرد الخلفاء ، و تلغى الخلافة ، ويثل عرش آل عثمان ، وينهض « الرجل المريض » مستعيداً بعض عافيته ، ويتساوى مع غيره فى التفكير لخير الامة وسعادتها .

. . .

فلو أن النهضة الكمالية سارت فى طريقها الطبيعى وجعلت هدفها الاسمى استعادة مجد آل عثمان الغابر واسترداد نفوذ الامبراطورية الذاهب ، لاكتسبت عطف العالم الاسلامى وأحرزت اعجاب أهل الشرق ، لكنها كانت متأثرة الى حد بعيد بخصائص الثورة البلشفية . أى ان كلتيهما عند ماعملت على تكوين أمة جديدة تقوم على نظم خاصة تسهر على حمايتها

دكتاتورية عسكرية ، بدأت بأزالة مايعترض تكوينها من عراقيل وانتزاع الايمان بالماضى من قلوب الجماهير . فحاربت الدين باسم حرية العقيدة، ونبذت الاوضاع الاجتماعية تحت ستار التجديد ، وقضت على الروح التقليدية وعلى العقائد الموروثة فى العادات والاخلاق توطئة لتأسيس مجتمع جديد لا تربطه بالماضى صلة ، وكانت هذه هى أدوات الثورة فى أطوار بعثها .

على أن أول انقلاب قام به الكماليون هو أن ثلوا عرش آل عثمان ثم ألغوا الخلافة . فقد رأوا فى السلطان خصما ينبغى القضاء عليه وعقبة فى سبيل قيام جمهورية تدين بمثل الثورة العليا وتنفذ سياسة الهدم والبناء ، ورأوا فى الخلافة شبحاً ميتاً يجب اغلاق ضريحه بأصفاد من حديد حتى يمحوا عن الدولة مظاهر الدين الحنيف . وقد وصف الاستاذ جلال نورى بك ، أحد الكتاب الذين لعبوا دوراً هاما فى الانقلاب الاخير ، أثر الغاء السلطنة فى نفوس الشعب فقال :

لقد عودنا على أن نلقن بأننا عبيد الملك ، ظل الله فوق الارض ، واننا له ملك ومتاع . وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شىء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار ، المتربع فوق عرش الارض ، وانه لن يكون من نظام اجتماعى أثبت أصولا من اجتماعنا ، ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا ، بينما كانت الحقائق الملموسة توحى لنا كل حين بان فى أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءاً بعد جزء من

أطراف الامبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغماً عنا نهباً واغتصابا .

وكانت لنا حكومة هي من أحط الحكومات الاوربية ، متردية في حمأة الرشوة ، مفككة الاوصال مضطربة الأحوال ، بعيدة عن حكم الشرائع والآداب . وكنا نستجدي الغرب في كل شيء نحتاج اليه . ومع كل ، فقد كان لدينا « ظل الله فوق الارض » وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاماً ممن تعرف ولا أذكر ! فاذا أصابنا الانحلال في الداخل ولم يكن لدينا من سبيل لكي نفهم الحق وأن نعرف الحقيقة ، الا بأن نتصل من طريق ما بالمعرفة الاوربية ، وأن نعترف بتفوق العقلية الغربية ، وأن نكب على درس الاسباب التي غرست الشقاء والتعاسة في أرض من كنا نعتقد أنه « ظل الله فوق الارض » . لما فعلنا ذلك ، ظهر لنا أن « ظل الله فوق الارض » لم يكن شيئاً ، اللهم الا صنماً مفقود القوة والروح ، كأي صنم من أصنام « بوذا » ، وكان لنا بمحمد أسوة ، فكما أنه حطم أصنام مكة والمدينة ، كذلك نحن حطمنا أصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكايا والقبور ».

ويلوح لنا أن الغاء الخلافة كان أمراً لا مفر منه بعد ان قر في عزم الكماليين الاقتداء بالسوفييت في سياستهم الهدامة وترسم خطواتهم في القضاء على الظواهر الدينية . فقد كان الاتراك يتكلمون باسم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، كما كان الروسيون يظهرون بمظهر حماة المسيحية قبل الحرب . ولم يكن الغاء الخلافة نزوة من نزوات الثورة ، بل الحلقة الاولى من

برنامج موضوع لفصم الوشيجة التى تربطهم بالعرب ، اخوانهم فى الدين والروح والفكر ، والتخلص من تبعتهم الاسمية امام مطامع أوروبا .

وكما كان الغاء الخلافة من الحوادث التاريخية التى تنبه لها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، كذلك كان من البواعث التى دفعت المسلمين الى انتزاع عواطفهم من تركيا بعد أن زالت عنها الخلافة وشهدت غروب شمسها ، والانفضاض من حول « الجامعة الاسلامية » التى ظل رجال السياسة العثمانية يؤيدونها ويعملون على تحقيقها ، ليوقظوا بها شعور ملايين المسلمين ، ويصدوا بها تيار أوربا المسيحية . ولم تلبث تركيا بالغائها الخلافة ، ان انتقلت من امبراطورية عظيمة الشأن ، لها ماض وتراث حافل بضروب العظمة ومجد الفتوحات العسكرية ، الى مرتبة الدول البلقانية الصغيرة .

وكان من أشد عوامل هذا التطور هو ترك الشباب للروحانية الشرقية وراء ظهره ، ليسير على خطى النبي الجديد الذي يحمل اليهم الدعوة الي اعتناق المدنية الغربية ، وقطع الاواصر الروحية والمعنوية التى تربطهم بالشرق . ففى سبيل ذلك فصلوا الدين عن الدولة ، واتخذوا القبعة شعاراً لهم لتزيدهم إمعاناً فى البعد عما يقربهم من العرب ، وأبدلوا الحروف العربية باللاتينية فمحوا من تاريخهم ستة قرون ، واختفت معارض

الخط العربي الجميل الذى يزين المساجد ودور العبادة . وآثروا الـكلمات الافرنجية على العربية ليقطعوا الوشيجة بين آدابهم وآداب الامم التى شاركتهم فى تكوين حضارة اسلامية راقية .

والدين الذى رفـع الاتراك الى مصـاف الامم العظيمة والشعوب الراقية وعبد الطريق امامهم الى فتوحات خالدة فى قلب أوروبا وأطراف الممالك الاسلامية ، لا يمـكن أن يكون سبباً فى القضاء عليه ومحوه بحجة أنه كان باعثاً لانحلال الامبراطورية وأداة فى نشر الجهل والجمود . ولقد اجتـذ الـكماليون الاسلام من جذوره ، فترجموا كتاب الله الـكريم وفرضوا الاذان والصلاة بالتركية ، مع أن الـكنائس فى أوربا على اختلاف لغاتها لا تزال الصلاة تؤدى فيها باللاتينية وحدها. وأحلوا القانون المدنى السويسرى محل الشريعة المحمـدية ، واستبدلوا عطلة الجمعة بالاحد ، والغوا العيدين ومناسك الحج ، فحـرموا الشعب تقاليد الاسلام وفضائله.

اما المرأة فقادوها الى الملاهى وزجوا بها الى انوار المراقص باسم تحريرها ، وأباحوا زواجها من غير المسلم بعد أن كانت ترى نفسها أعز وأرفع من أن يلى أمرها غير ابن دينها ، وصرحوا باحترافها الرقص والتمثيل وبافتتاح دور دعارة رسمية تمشياً مع سنن الحضارة الغربية التى اقتبسوا نفاياتها وقشورها.

وتقوم تركيا الجديدة على الصناعة وتنمية الموارد الاقتصادية فقد تحولت التـكايا الى مصانع ، وصارت الآلة طابع حضارتها

الحديثة ، وعنوان رقيها ، وأصبح شباب الجيل الجديد فى حاجة ملحة الى كسب وسائل العيش ومقاومة أعاصير الحياة. وهذا السعى وراء الخبز اليومى . مع الاندفاع المتطرف الى الالعاب الرياضية وضروب اللهو ، والأخذ بتوسع فى أفانين الحضارة الاوروبية ، مما يحول بين الافراد وبين التأثر بالدين وتغذية عقولهم وتذوق الثقافة على وجهها الصحيح . ولو أن الجيل الجديد يستطيع أن يوازن بين الدرس وبين التكالب على الحضارة الاوربية وما تحمله فى طياتها من سموم ، لرأينا من تركيا دولة اخرى لها ما لليابان من قوة النفوذ والسيطرة . ومما يلاحظ أيضاً ، ان جو تركيا فى الماضى ـ أى قبل ان ينقل اليها الكماليون الآلة وما تبعها من تقلبات اجتماعية ـ كان أكثر هدوءاً وطمأنينة ، وأميل الى الروح الفطرية الساذجة ، ولم تكن هناك بطالة ولا ازمات اقتصادية كالتي نسمع بها الآن ، ولا ضرائب فادحة يئن منها الشعب وتدفعه الى النفور من الطابع الجديد .

والواقع أن النهضة الكمالية لم تأت بشىء جديد سوى أنها اقتبست تراث الحضارة الاوروبية بصورة مشوهة . فخالفوا الطبيعة فى التجديد ، وقاسوا الدين والاخلاق بمقياس الصناعة والحضارة . فكان كل ما عندهم باطلا يجب أن يحاربوه ، وكل ما فى أوروبا حق يجب أن يجلبوه كالسلع . وهم يحتجون بأن القلب قد تغير فيجب أن تتغير العقلية التركية تبعاً له . مع أن القلب الحى هو الذي يخلق الامم ويشيد الحضارات ويؤمن

بسياسة الاعوجاج ليقومها ويرقى بالشعب الى المكانة اللائقة به بين الشعوب . وقد كان فى استطاعة الكماليين ان يمارسوا حضارة الغرب مع المحافظة على شرقيتهم وخصائصهم العنصرية ، وهذه اليابان - مع المحافظة على طابعها الشرقى الخاص وعقائدها الموروثة - لا تقل عن اعظم امبراطورية فى العالم رقياً وحضارة ، وحجة الكماليين فى ذلك ان اليابان اعتنقت أفكار أوربا وعقليتها تماماً ، ولو انها ظلت كالصين علي العقلية الاسيوية لما أتيح لها أن تكون صاحبة نفوذ كما هى عليه الآن، وتركيا تريد ، مع احتفاظها بقوميتها وخصائصها العنصرية ، ان تعتنق مدنية أوربا بكاملها وأن تصطبغ بحضارتها وأن تدين بمثلها العليا ، وليس لها دون ذلك أى هدف ترمي اليه ، ولا يحسب اخواننا العرب أن فى تغيير لباس الرأس مثلا ، وأخذ الكثير من عادات الغرب معناه تغيير لخصائصنا العنصرية ، لا ! فنحن الآن أحرص فى المحافظة عليها من قبل . . وجل ما فى الامر ان عنايتنا أصبحت باللباب دون القشور التى لا يزال الشرق متمسكاً بها تمسكه بالعقائد الصحيحة » .

ويحسن بنا الا نغفل أخيراً حقيقة بارزة وهى أن الجمهورية وقد فرضت سيطرتها الدكتاتورية - حرصاً على سلامتها وعلى بقاء نظمها - رأت أن تعمل جهدها على الاتصال بعقلية النشء لصبغها بالصبغة القومية الخالصة وبث روح « الجامعة الطورانية» فى نفوس الافراد والجماعات . فمن الدروس التى تلقن للنشء مثلا :

أعظم البر يجب أن تقوم به نحو الوطن . وهذا الوطن لا يمكن أن نحميه بالصلاة . انما يحمى بالسلاح وقوة السواعد المفتولة . وهل كان يمكننا أن ننتصر فى حرب الاستقلال لولا الاسلحة والجنود » وفى كتاب « دروس دينية لصبيان الجمهورية » : تعرفون ان الاتراك دانوا بالاسلام ودخلوا فى هذا الدين الصادق البسيط فليس فيه مكان للاساطير عن الملائكة وعن الفلسان ولسان وسائر ما لا يقبله العقل . ان الاسلام لا يدعو الى التعصب ، بل يدعو الى الحضارة والى الحضارة الجديدة . ونحن الاتراك ننتمى الى أمة متمدينة وقد طردنا التعصب من بلادنا ، وقبرنا الجهل ولن نسمح أن نعود اليه . فما اسعدكم إذ تعيشون فى عصر الجمهورية » .

وليست هذه الافكار والتعاليم التى تلقن للنشء الجديد شيئاً بالنسبة لما يصرح به كبار مفكريهم وكتابهم ، ففى آراء هذه الفئة وضوح قوى لمناضلة الفلسفة القدرية التى يدين بها الشرق . وهذا جلال نورى بك ، يبحث خصائص تركيا الجديدة على ضوء من التعاليم الاسلامية والتعاليم الغربية معاً فيعلل الدوافع التى دفعت الاتراك لاعتناق حضارة الغرب بقوله : لقد فهم الأتراك أخيراً أن الاقوام الذين يعلقون مستقبلهم بمستقبل نظام دينى لا يحتمل ان يكونوا سعداء . ولذا انضم الاتراك الى المثل الغربى الأعلى ، مثل القومية . ورضوا به بديلا عن الاخوة الاسلامية القديمة . فاذا أردت ان

تكون مخلصاً للماضي متمسكاً به ، وأن تظل فى وحدة مع مستقبل ثلاثمائة مليون من المحافظين الجامدين الذين لم يعرفوا للرقى معنى ولا ذاقوا للحضارة طعماً . فليس لهذا من معنى الا أن تثور ضد الحاضر والمستقبل ، بل معناه الصريح أنك تفقد كيانك القومى. يجب علينا أن ننتحل أسلوب التفكير الغربى ، وليس فى الغرب من يهتم أقل اهتمام بشىء من النظريات المحررة المستمدة من الماضى ، مهما كان مصدرها ومهما كانت منزلة القائل بها ، فى حين اننا فى الشرق نجد أن العلم قائم على التقاليد . وبينما نجد أن العقل قد سفل واخضع ، نجد أن التقاليد استغلت وسادت . والتفكير فى الغرب غير مقيد . على حين أنه فى الشرق مقيد مستبد به ، محتكم فيه » .

والخلاصة أن الانقلاب الاخير خلق من الاتراك شعباً مفتوناً بكل ما هو أوروبى ، وجعل من أرضهم بلاداً جديدة ، حتى ان استامبول التى اشتهرت بجمالها الطبيعى وسحر نسائها ، هى الآن أقل فتنة وأدنى طابعاً مما كانت عليه ، وأصبحت المرأة فى حالة تدهور اجتماعى نظراً لاطلاق قيودها والسماح لها بالاشتراك فى الحفلات الساهرة والمراقص ، فلا يسع المرء وهو يرى تركيا الجديدة الا ان يتناثر سروره كحلم تبدده يقظة الصباح .

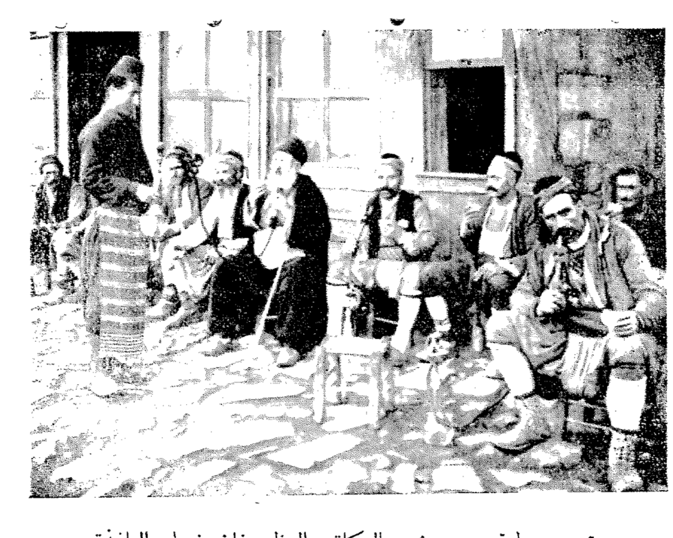


مسجد أيا صوفيا قبل أن يحول إلى متحف



مسجد السلطان احمد والمسلة الفرعونية

مسجد السليمانية



مقهى بيير لوتي ويرى شبح الكاتب العظيم خلف زجاج النافذة

غروب شمس

فى البحر الاسود

ودعت استامبول فى يوم صفا أديمه وراقت سماؤه ، وانطلقت السيارة تجتاز بنا الدروب والشوارع الى ميناء «غلطة» ، والقلب مترع لوعة وأسى ! ترى هل يتاح مرة أخرى أن على العين فيض هذا الجمال الذى خلعته الطبيعة ووشت به هذه البقعة المباركة من الارض ؟

غادرنا استامبول اذن على الرغم منا ، فمن يستاف العبير من هذا الفردوس الارضى ، يحس من سويداء قلبه أن زيارة واحدة لاتكفيه فى العمر ، بل عشرات الزيارات كى تزداد النفس تشربا بحسنه وتعلقا باجتلاء مفاتنه !

انظر الى هذه الطبيعة التى مزجها الانسان بحسه وذوقه ، فنفخ فى سفوح التلال وروابيها روحاً تجعل بين الخالق والمخلوق صلة وثيقة غرضها التعاون على إبراز الجمال ، وانظر الى هذه

الشمس العظيمة وهى تبسط آشعتها فوق القباب المستديرة والقنن الحدباء فتبرق أطرافها فى الضوء الساطع، كالذهب يتوهج فى كف الرجل الكريم، ثم انظر الى السماء ساعة الاصيل وهى تكاد تذيب تبرها عند نهاية الافق فتكابد الشمس وتحاول أن تنفذ أشعتها من وراء الغمام. وانظر اليها مرة أخرى بعد الاصيل تراها مرقطة بالنجوم، سابحة فى لجة القمر، والى القوارب ذات الاشرعة اللجينية وهى تحبو فى نور الفضاء، تحمل عشاقاً وصبايا، لايجد الحب راحته الا على وجناتهن الناضرة، ينعمن فى سحر هذا الليل الشرقى البهيج، وكل صنو قرير عين بصاحبه.

واستمع الى حفيف أجنحة الطيور وأناشيد البلابل فى «حدائق تقسيم» وملاهيها، والى أهازيج الحب وأنغام الموسيقى منبعثة من القوارب أو المقاهى المتناثرة على ضفاف القرن الذهبى. ثم اسمع صوت المؤذن وهو يدعو المتعبدين الى الصلاة وعلى رأسه القبعة، هل ترى التقبع حجب ما كان بينه وبين الخالق فألهاه عن ذكر الله، أم أن الايمان الصحيح مكانه فى السويداء لايتزعزع الا من ضعف العقيدة ودوام التشكك؟

وذرفت من عينى دمعة حرى!

لاأدرى أكانت من تلك الدموع التى تفيض بها المآقى ساعة البين، أم انذكر الاسلام هفا بخاطرى فترحمت على العقيدة التى كانت تثنى ركب المؤمنين من آل عثمان فى ظلال المساجد، فكانوا أحرص المسلمين عكوفاً على العبادة وجهاداً لرفعة الدين الحنيف،

كيف خلت اليوم منهم بيوت الله ، فعطلت فيهـا الشعائر الدينية وانتفت منها تعاليم محمد ، وصبأ عنهـا المؤمنون الى زخرف الدنيا وباطلها .

تحركت السفين وأخذت تجتاز البسفور الهوينا ، كأنما تريد أن تمتع ركابها ببعض هذا الجمال ، وكنت تنظر الى وجوههم فاذا بها مشرقة حالمة ، والى عيونهم فاذا فيها استسلام ورضى، وكيف يستطيعون اخفاء ما فى قلوبهم ، وهذه السماء الضاحكة والموج البسام ، تذيب الشمس فيه تبراً ساعة الاصيل . وهـذه الجبال الشامخة ، المتعانقة قممها الجرداء من شهوة الطبيعة ، لا تستقر العين عند جزء من مهابتها وعظمتها . وهذه القصـور التى كانت تتوارى الجوارى والقيان خلف شرفاتها المبرقعة بمربعات خشبية ليحملن الحمام الزاجل بعض مافى صدورهن من تنهدات حارة...

فكل مانراه جاثماً أمام أعيننا ينطق عن السحر والهوى ، وهل كانت استامبول الا مرتع ربات الجمال ،وفيضاً من هذا النعيم الذى حملته حواء معهـا يوم خرجت من الفردوس تنثره فى بقاع الارض لتجعل منها منبع فتنة للانسان ؟

وداعاً أيتها البلاد العميقة الجمال .

أيتها المساجد المقدسة ،التى كان يتربع فوق صـدرك آخر محراب لخلافة آل عثمان ...

أيتها المعابد التى كانت عامرة بذكر الله ، متعالية فوق هذه الحياة الصاخبة قبل أن تدنسك مدنية الغرب ، مدنية المغرورين،

الذين يدكون بفظاعة معالم الجمال التى صانت الاجيال حرمتها فأبقت عليها كرمز لمجد الانسان...

أيتها القباب الشاهقة البياض ، قبل أن يحجبك عن أبصار المؤمنين دخان المصانع أو دخان البواخر التى ترسو فى ظلالك ..

أيتها المآذن المتسامية فى الفضاء،الناشرة فى الضباب العابر جواً خاشعاً ترعش فيه آلاف الذكريات ،والمشع من الأهلة المذهبة التى تتوج أطرافك حلم الاسلام مقروناً بفكرة الله الواحد القهار . .

وداعاً يااستامبول .. قبل أن تنزلق الباخرة بنا خارج حصون البسفور ، بعيدة عن سناك الفتان ، فلا شيء عندى يعادل جمالك ، ولا جلال فى الوجود يمكن أن يدانيك ساعة الاصيل وأنت راقدة على ضفاف البسفور، تبكين الترف الذى كان ينعشك فى البداية والفقر الذى يكاد يقتلك فى النهاية !

وكما يذوب الراحل فى عين مودعه على أمل لقاء قريب . . . أرانى أغمض عينى على جمالك العطر،وأبعد عن خاطرى كل ماعداه حتى أمضى به كاملا وأعود اليك مرة أخرى .

. . .

ها قد تخطينا البسفور الى مياه البحر الاسود ، فتحولت ابتسامة الطبيعة فى لحظة واحدة الى غموض واضطراب ، وها هو الفزع والضيق يحلان فى القلوب محل الوداعة والسكينة ، فما كل هذا العباب الادكن ، والسحب القاتمة ، والشمس معصوبة الجبين، تحوطها دارة من الشفق الدامى ، وماهؤلاء الركاب يتسللون لواذاً

من قاعـة الطعام ـ وحرارة الشاى لاتزال في أفواههم ـ الى حيث يأمنون دوار البحر فى مضاجعهم ؟

وتلفت حوالى ، فاذا الافق غارق فى لجات من غمام بدت كالحيتان السابحة فى الفضاء ... والموج يتكاثف على جانبى السفين كحاجز ثقيل ، فى استرخاء أفيال هرمة ، والشمس راقدة فيشفق اصطبغ بد كنة الماء وصفرة الذهب ..

وان هى الا لحظات قصار حتي بدا القمر عن يميننا ،ترف على وجهه أحلام صافية ، فترود الشمس بعينها الدامية ويذوب احمرار الاصيل شيئاً فشيئا فى قتام الغمام ، حتى خيل الينا أن السماء قد حوت مغربا ذا روعة وسنا فجر !

أمام هذا المشهد العميق الرهيب ، بدأت الحيتان تزحف متباطئة ومترددة فى الفضاء ، تسبقها بقع صغيرة ، كأنما هى فلول راياتها سود تتقدمها للقتال ، ثم تحاول أن تلتصق بوجه الشمس لتلقى عليها وشاحا يصدها عن الطـلوع أمام جلال القمر الرائع ، فلا تزداد الشمس الا ثورة وهياجاً ، وترسل أشعتها على هذه الحيتان السابحة لتصليها لهيباً ودماً ، وتصبغ الوجود باطواق من نور ونار كانهما منبعثان من فوهة بركان ، ثم يهب بعـد لحظة اعصار شديد دافع ، فكأن فى السماء قوى خفية تصب العـذاب حتى ليرجف سطح البحر اطـاعة لامرها ، كالجواد يرجف تحت راكبه .

ذكرت فى هذا الجو الذى تتصارع فيه كافة عناصر الطبيعة،

وأمام هذه المعركة القائمة فى السماء، ماقرأته فى كتب الاقدمين عن حديث عكرمة والسبعين الف ملك الذين يأمرون الشمس فى كل صباح بالطلوع فتقول لهم : كيف أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فيأتيها شيطان يستقبل الضياء يريد صدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه ويحرقه الله تحتها ، وما غربت قط الا خرت لله ساجدة، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب على قرنيه ويحرقه الله تحتها » .

أخذت أذكر حديث عكرمة وأردده وأنا أتخيل هذا اللهب الذى يصبغ لون السماء أشباح آلاف الشياطين ، وهذه العواصف أنفاساً تتصاعد من أفواههم، وهذا الرعد الذى تستد له المسامع إن هو الا أصوات السياط يسوقون بها الحيتان المذعرة في الفضاء لحثها على القتال .

ولكن الشمس كان قد نالها من كد النهار ومن نضال القمر وغزو حيتان الغمام ماأدمى وجهها وهد قواها ، فاذا بقرصها المهزول يرسل أشعة طفيفة حمراء كخيوط الدماء ..

وكان القمر قد أنذرته العاصفة بالمطر فستر رأسه الجميل بين السحب ، ثم همى الماء مدراراً فكأنه حزن فاض من قلب السماء فأرسلته دموعاً ، واذا بالشمس تغرق بين عدوان الطبيعة وهتون المطر ،والسفين تسير فى ديجور تسيطر فيه آلهة الظلمة، حتى حسبناها تتخبط بنا فى بحر من مداد أسود ، مندفعة صوب مصير مجهول.

فى رومانيا

« بلاد العواطف والجمال »

**** ****

لاحت مدينة كنستنزا — عروس البحر الاسود — فى هدأة الفجر الجميل ، راقدة تحت أشعة الفنار المتلألئة وأضواء القمر الكابية ، كماسة سوداء تتألق على صدر أمير خيالى من أمراء الف ليلة ...

وكانت الليلة التى قضيناها فى البحر الاسود من أسوأ الليالى التى مرت بنا ، فعواصف تزمجر ، فاغرة فاها لابتلاع السفين ، وأمواج تصخب وتزأر ، كذئاب كاسرة تلهث متحفزة نحو فريستها بعد أن عذبها الجوع وأضواها ، ورياح حاصبة تضرب جانبي السفين كسياط من حديد ، ونفوس والهة ترتجى رحمة الرحمن . فلما أوشكنا أن نقترب من اليابسة ، بعد أن مررنا بفنار كونستنزا الذى كان يوزع أشعته فى هدوء الفجر كخيوط من النور ، شعرنا جميعاً أن الله استجاب دعاءنا فانقذنا من غول البحر الاسود ، وبرزت الميناء أمامنا كأنها فاتحة ذراعيها لتضم السفين اليها ، وأحسسنا أحساس طفل عاد الى أمه بعد أن ضل طريقه فى غابة كثيفة مملوءة بالرعب والمخاطر ...

وكأن ما نالنا من دوار البحر ، وماقذفته أجوافنا من مواد صفراوية ، قد غسل قلوبنا ، ونفى عنها المرارة التى تعكر صفاء الذهن، فنزلنا من الباخرة الى شوارع كنستنزا بوجوه تطفر بشراً، وكانت الشمس قد بدأت ترسل أول خيوطها الذهبية الشاحبة ، فتلمس العيون الحالمة ، وتصبغ أطراف الكنائس والابراج بلون وردى، حين كان نور السماء يلفها بأطار بنفسجى ممتزج بضباب خفيف.

. . .

كنستنزا هى بلا شك عروس البحر الاسود — وان كانت « وارنة » تنازعها عرش فتنتها — ورغم صبغتها التجارية كميناء رسمى ، ففيها « مستحمات مامايا » التى تشبه شواطىء دوفيل ، وعلى مقربة منها مصيف البرنس ميشيل ولى العهد ، والملكة الشاعرة مارى . وفى المدينة مساجد ثلاثة ، يؤمها المسلمون كلما حانت الصلاة ، وجلهم من الاتراك والبلغار والبلقانيين ، الذين يزاولون عادة تجارة الدخان والألبان والحبوب. وهم على الرغم من تمسكهم بقواعد دينهم ، وحرصهم على تتويج رؤوسهم بشعار الاسلام فى شرق أوربا ، محتقرون فى بلادهم ، غرباء عن العالم الاسلامى لا يكاد يسمع بهم أحد ، ولا يلقون مساعدات مادية أو ثقافية ، وقد بدأت جماعات منهم تنزح عن رومانيا طلباً للهجرة .

لاتكاد تغادر الميناء حتى تصطدم عيناك بمنظر العربات الفخمة ، تجرها الخيول المطهمة ، وهى مصطفة فى ساحة الجمرك

فى كبرياء وأرستقراطية زائلة ، يقودها حوذية عمـالقة ، فى ثيابهم الروسية . وترى الابنية الشاهقة المشيدة بالقرب من الساحل « كنادى الملك كارول البحرى » والى جانبه كازينو منسق على نظام مونت كارلو . وفى الناحية المقابلة بعض الدور الخاصة بالملاحين ورجال السفن ، فاذا انحدرت الى الشارع الرئيسى الذى يتوسط المدينة ، تجلى على الجانبين الفنادق والمشارب والمقاهى ، يجلس الناس اليها بملابس الشاطىء دون خشية أو خجل ، حيث تفرغ لهم الثلاجات محتوياتها !

فى هذا الشارع يقع « ميدان العمودية » وهو ميدان فسيح يتوسـطه نصب عظيم للشاعر الرومانى أوفيديوس نسقت حوله حديقة صغيرة جميـلة ، كان الشاعر يجلس فيها يفكر ، ويستوحى الهة الشعر ، وبتأثير هذا الوحى كان يقرض الاشعار ، التى خلدت اسمه على ممر الاجيال . فأوفيديوس لم يكن شاعر رومانيا فحسب ، بل شاعر البلقان بأكملها ، وقد تجلت آثار روحه العظيمة فى توجيه الادب الرومانى الى أسمى عاطفـة وأنبل تفكير .

. . .

على سواحل « ماما يا » وفى مستحماتها يذهلك هذا الجمـال الرومانى المونق ، فهو جاثم فى الطبيعة الضاحكة ، والموج البسام وعلى الشاطىء المرع تفترش رماله الغوانى والعذارى ، يرقبن خطى سعادة قادمة أو حب جديد مجهول ...

ماذا فعلت الطبيعة بهؤلاء الرومانيات ؟ لقد مهوت بينهـا

وبينهن معاهدة صداقة وثيقة ، فلم تبخل عليهن بكل ماتملك من شباب وجمال . حبتهن قواما لدنا ممشوقا ، يحمل معانى النضارة والعافية ، وغصناً رطباً يحرك حرارة الهوى فى القلوب ، وشفاها رقيقة ، ظمأى الى ترشف خمرة الحب !

رومانيا بلاد العواطف والجمال ...

فلا تلقى الرومانيات الا ضحوكات السن لعوبات ، لهن رشاقة الباريسيات وخفة الامريكيات! كنا نجوس مرة خلال أحد المتنزهات العامة ، فلفت نظرى فتى وهو يقبل فتاة فى ثغرها ونحرها. وآخر يخاصر رفيقة له فى الطريق ،وعلى سيمائهما امارات غبطة ورضا . والناس رائحون وغادون ، كل فى شغل عن نفسه بشؤونه الخاصة، ذلك ان للحرية الفردية فى هذه البلاد قداسة وحرمة . وفى اعتقادهم أن للقبلة العلنية مظهراً سامياً ومعنى جميلا . فقد تكون عربون خطوبة أوفاتحة صداقة جديدة ، ومهما تكن فهى صادرة عن عاطفة واحساس يترفع بالنفس عن التدنى الى الشهوة . أما القبلة الخفية فهى تحمل فى طياتها جراثيم الشك ، وقد يكون الدافع اليها دافعاً جنسياً ممزوجاً بالدنس . وليس أدل من التستر فى إتيانها على استنكار الطبيعة واشمئزاز المجتمع منها .

. . .

فى فترة اقامتنا بكونستنزا ، دعينا الى زيارة « ايفوريا » وهو مصيف ساحلى جميل ، يبعد عنها نصف ساعة بالسكة الحديد، وكانت الدعوة موجهة الينا من جمعية O.N.E.F وهى هيئة رسمية

لتنشيط الروح الرياضيةوبثها ، تخضع لنظام شبه عسكرى ، ورئيسها برتبة جنرال فى الجيش . وللجمعيـة معسكر رئيسى فى ايفوريا يقصده ألوف من الشبان والفتيات لتمضيـة شهر من شهور الصيف ، يمارسـون أنواعاً من البطولة الرياضيـة كالفروسية ، والرماية ، والمـلاكمة ، والمبارزة ، والالعاب السويدية ، تحت اشراف مدربين اخصائيين . ويتمتع الاعضـاء بالسباحة إما على ساحل البحر الاسود ، وإما فى أحواض خاصة من النوع المعروف « بالبسين » . وتكاليف الاقامة في هـذه المعسكرات زهيـدة للغاية . وللجمعية مشتى أجميل في بلدة تسمى « بريديال » بالقرب من جبال سـنايا ، وفروع منتشرة في كافة أنحـاء رومانيا .

كانت المأدبة التى أقيمت تكريماً لنا فى المعسكر بسيطة في طعامها ، لكنها كانت عظيمة في معناها . ذلك أن بعض الاعضاء تطوعوا لخدمتنا ونحن على المائدة . وكان الطعام مـكوناً من الصحن الوطنى المعروف باسم « ماما ليجـا — كو — برنزا » وهو من الذرة المطبوخة مع القشدة ولحم البط ، ويقبل الرومانيون على التهامه بشهية ، ويفضلونه على بقية الاطعمة الشرقية ، وأحياناً يحتسون معه السويكا ، وهو مشروب وطنى ، مخدر للاعصاب .

كانت اقامتنا في كنستنزا أياماً محدودة ، فلمـا آن لنا أن نغادرها ، استقللنا القطار السريع الذى يقطع المسافة بينها وبين بوخارست في أربع ساعات .

غادرنا كنستنزا والشمس تتهيأ للانحـدار الى مغيبهـا ، والبدر يسبح في لجة الفضاء ، تندمج في نوره الفضى شعاعات الشمس الغاربة ، وينعكس ضياؤه فوق الربى والمروج ، فتبـدو كالزمردة الصافية ، لم يدع الصانع جزءاً منها الا صقله وجمله .

ينطلق القطار بنا في سرعة السهم المارق ، يجوس خلال الريف الرومانى الخلاب ، الذى يذكرنا بريف النيل السعيد ، تاركين وراءنا ماما يا بمستحماتها وغوانيها ، يبحثن عن الاصداف أو عن القلوب على رمال الشاطىء . كلما انتقل القطار بنا من منطقـة الى أخرى ، شعرنا أننا ننتقل من جمال الي فتنة الي ذهول. فهذه الأحراش والغابات ، يتسلل نور البدر بين أوراقها ، وهذه الوديان المنخفضة ، والربى الزاهرة ، يتدفق هدير الماء حولها ، ويسكب القمر فضته فوق صفحتها . وهذه السماء ممسكة عن الطبيعة ماءها، كأن الطبيعة في عرس ، فهى تخشى أن تعكر صفوه بودقها .

أخذت جيوش الليل الرهيبة ، تزحف متباطئة حول القطار ، وأنوار القرى والدساكر التى نمر بها ، تبدو مبعثرة في ظلام الافق ، كنجوم تغوص تحت صفحة الماء . كلما صعد القطار بنا من ربوة الى هضبة الى حضن من أحضان الطبيعة ، حسبنا أنفسنا جزءاً غير منفصل من هذا الوجود الذى أبدعـه الخالق وأحسن تصويره . وأحسسنا من أعماق قلوبنا أننا نقترب من نور الله ، لا يغض من أبصارنا ويرد علينا روعنا الا سحابة من التقوى ، تهبط على شفاهنا المتبتلة بالتسبيح !

بوخارست

وصل بنا « اكسبريس الشرق » الى « محطة الشمال » وقد بدت بوخارست فى غلالات المساء القانية كأن سماءها تمطر ناورداً وذهباً، وبعد ان أودعنا حقائبنا فى «فندق كبسا» واسترحنا قليلا بعد سفر متواصل أربع ساعات بالسكة الحديد، قصدنا الى « رستوران باندى»، وهو مطعم أنيق جذاب يقع بالقرب من « فكتوريا جاليا » أو ميدان النصر ، حيث تناولنا فيه طعاماً رومانياً شهياً ، بين عزف الموسيقى ، وخادمات أنيقات ، يبدو جمالهن فى المحيا اكثر مما يبدو فى التقاطيع ، ثم انطلقنا بعد العشاء نجوب الشوارع التى كانت تتلألأ فى نواظرنا كشعلة من النور ، نطالع وجهات المخازن التجارية ، وما يعرض خلف زجاجها البلورى من الازياء المبتكرة وروائع الفن الحديث . وعلى العين منظر العاملات الرومانيات وهن يغدون ويرحن فى حركات رشيقة كأنهن فى موكب عرس أو حفلة تنصير.

. . .

وفى غداة اليوم التالى قصدنا الى « حدائق ششمجيو » . وكانت ورودها لا تزال تتفتح فى أشعة الشمس، والاطفال يرتعون

على مقاعدها في بسمات مشرقة ، ويعدون فوق بساطها السندسي كازهار متحركة ، وبعد أن تنزهنا فيها قليلا زايلناها الى « بارك الملك كارول » ـ أعظم متنزهات بوخارست ـ لزيارة قبر الجندى المجهول والمتحف الحربى ومعرض الصناعات والمسجد وبعض النصب والتماثيل الرائعة ، وهى جميعاً صفحات تاريخية ووطنية رائعة ومحاسن ترتع فيها العيون والنفوس معاً . .

وبارك الملك كارول منسق تماماً على مثال « الهايد بارك » فى لندن ، وقد يمتاز عنه بالانوار الوضاءة الملونة تتخلل أوراق الاشجار وأغصانها لتهدى الزائرين فى الليل الى مرقص او ملهى أو مطعم تظل أبوابه مفتوحة حتى مطلع الفجر .

ومسجد بوخارست ، ولو أنه صغير الحجم ، من أجمل مساجد البلقان ، يقع فى داخل الحديقة، على حافة بحيرة ساحرة الجمال تخطر الزوارق فوقها ، ويؤمه المسلمون كلما هبط من مئذنته صوت يدعو المتعبدين الى الصلاة . وهناك مسجد آخر في قلب المدينة، منقوش فوق بابه « بسم الله الرحمن الرحيم ـ جامع بوخارست المشمول برعاية الخاصة الملكية المصرية » إذ أن صاحب الجلالة الملك فؤاد ينفق عليه من جيبه الخاص ، رغبة منه فى نشر الدين الحنيف وإعلاء كلمة الاسلام .

ودلفنا الى المتحف الحربى ، ولا بد لزيارته من أن تمر أولا بقبر الجندى المجهول ، تقرؤه التحية برفع القبعة والمثول أمامه

خاشعاً دقيقة أو اثنتين ،على حين يصطف الحرس بنظام ويشترك معك فى تأدية التحية .

هذا القبر يمثل فى عظمته وجلالة أسمى معانى التضحية الصامتة وأروع مواقف البطولة الخالدة، ففى ثراه المقدس ترقد آمال أمة وفى حفرته الضيقة تدفن قلوب أشتات الامهات. تنبعث من جوفه نار أبدية هادئة ، لا يطفىء لهبها كر الغداة ومر العشى ، ويقف فوقها ملاك يقول لها : كونى دوما برداً وسلاماً . برداً على قلوب الثكالي واليتامى والارامل ، ممن فقدن فلذات أكبادهن ، وسلاما يبدد فكرة الذين تستهويهم إراقة الدماء وافناء الشعوب والجماعات

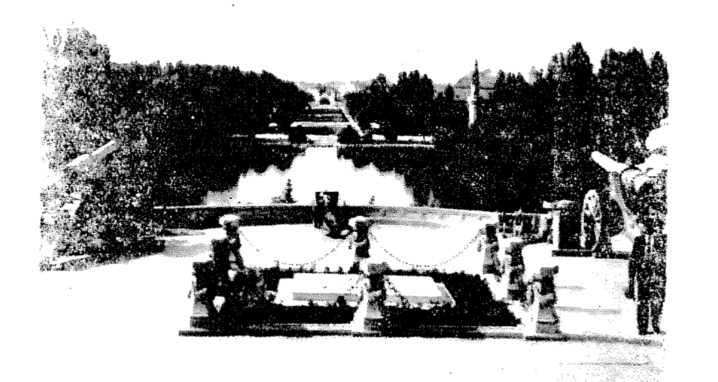
أية فكرة خبيثة جمعت بين رفات « الجندى المجهول » وبين دار « المتحف الحربى » فجعلتهما متضادين يناوىء كل منهما صاحبه ؟

تمر بالقبر فلا يلبث الجم ان يخترم نياط قلبك فتذرف دمعة سخينة من أجل النفوس البريئة التى استشهدت فى ميادين القتال، على انك لا تكاد ترقى درج المتحف وتغشاه حتى تتناسى هذا كله فتنبعث من نفسك كوامن الحماسة وتتمثل أمام ذهنك أسمى صور الجهاد والاستبسال .

هذا المتحف يضم ذكرى المجاهدين والابطال ويخلدهم في أذهاننا أحياء ، وفي أركانه تلقى أعظم دروس الوطنية العاملة وأعنها . . . ففى الردهة الرئيسية الخاصة بالاسرة المالكة نصب عظيم لكارول الاول الذى خلص وطنه من ربقة الاتراك بعد أن

حكموها قرونا وأعواما ، يحف بتمثاله الاعـلام والبيارق ، خطت فوقها آيات قرآنية « الله اكبر . الله اكبر » ورسم عليها الهلال والنجوم الثلاثة . ثم التاج الرومانى وهو مصنوع من صلب مدفع عثمانى غنمه الرومانيون فى الحرب . الى جانبه صور مختلفة أخـذت للملـكة الوالدة مارى زوجة فردينا ند الاول فى خلال الحرب العظمى ، تمثلها متشحة بملابس « الصليب الاحمر » تجتـاز خطوط القتال وتخوض سـاحات الوغى لتضمد جراحات أبنـاء الوطن وتحث الجنود على التقدم والانتصار .

وفي مدخل المتحف الطيارة التى ركبها الى رومانيا كارول الثاني . فقد تنازل كارول عن العرش لابنه ميشيل ولى العهد ، مفضلا اقتفاء أثر معشوقته الشقراء مدام لوبيسكو فى عواصم أوربا ومدنها . ثم ظهرت بوادر الشقاق فى وطنه ، إذ حاولت المقاطعات الجديدة التى غنمها الرومانيون بعد الحرب وضموها الى مملكتهم ان تشق عصا الطاعة ، كما أن أنصاره الذين يتألف منهم « حزب الفلاحين » أخذوا يطالبونه بالعودة الى العرش وعلى رأسهم الزعيم برتيانو ، لأن حزب أمه الملكة يقوى ويشتد ساعده في البلاد ويجد في نشر الاراجيف ليمنع وصوله فى المستقبل الى العرش . فلما رأى كارول كل هذه الدسائس تحاك حوله عزم على المخاطرة بحياته ، فلم يشعر الرومانيون فى ذات يوم الا والملك يهبط بطيارته فى فناء القصر الملكى ببوخارست قادما من باريس بعد غيبة سبع سنوات . . .



قبر الجندى المجهول ببوخارست



مسجد بوخارست

قصر سنايا



آدم وحواء — للرسام جوردیانس. إحدى روائع متحف الفنون الجميلة

ولقد رأى الشعب اغتباطاً بعودته ورمزاً الى تعلقه بعرشه ان يكتتب فى شراء هذه الطيارة وان تحفظ فى فناء المتحف الحربي.

يضم المتحف أيضاً صوراً ورسوماً لجميع قواد رومانيا وأبطالها ، ويحتفظ بنسخ من المعاهدات الدولية ، وتواقيع خطية للقواد ، وكل ما كان متصلا باسباب حياتهم وما خلفوه من الآثار ، وهناك تماثيل من الشمع تمثل جميع رتب ضباط وجنود الجيش فى ملابسهم وأسلحتهم وحياتهم في الميدان بكامل معداتهم الحربية وغرف أخرى معروضة فيها الهدايا والاوسمة التى قدمه الحلفاء لرومانيا بعد الهدنة .

. . .

وعلك بوخارست ـ غير متحفها الحربى ـ مجموعة من الثروة الفنية سلمت من عبث الزمن ، وان كان بعضها لم يسلم من عبث الاجانب ، كتماثيل ذهبية قديمة من عصر الرومان استولى عليها الروس فى خلال الحرب العظمى ولم يعيدوها ، كذلك تسربت منها سبائك من الذهب واللؤلؤ والآنية التاريخية المقدسة ومجموعات ثمينة من طوابع البريد. وهناك متاحف أخرى للآثار وللبلدية وللفن الكنائسى وتضم دار الاكاديمية الرومانية مجموعة من المخطوطات القديمة ، وتوجد متاحف حديثة انشأتها بوخارست متشبهة في ذلك با لعواصم الكبرى . ففيها متاحف للتاريخ الطبيعي ولعلم طبقات الارض وللاتنوجرافيك « وصف الاجناس البشرية » وللطرق وللفن القروي ولا سيما الخزف الذى يستلهم الفلاح الرومانى صنعه

من الفن البيزنطى والتركى والايطالى . فالفن القروى الذى لم تمسسه بعد يد الجماعة ، يمثل حياة الرعاة البسطاء الذين يطيلون التأمل فى الكواكب . ويبين حالة الفلاح الرومانى القانع بحالته الفطرية المتواضعة .

. . .

وكانت زيارتنا بعد الظهر للمفوضية المصرية ، فهرعنا اليها حيث استقبلنا موظفو المفوضية فى حديقة الدار التى كان يرفرف فوق ساريتها العلم المصرى المحبوب، وتزين غرفها صور فوتوغرافية لجلالة الملك وسمو ولى العهد . وجلسنا نتجاذب أطراف أحاديث شتى ، والقهوة والسجائر المصرية تقدم الينا من حين لآخر . ولما كنت على موعد مع الاستاذ تسلاوا سكرتير تحرير جريدة « اليونيفرسال » — احدى كبريات صحف بوخارست اليومية — فقد استأذنت رجال المفوضية ، شاكراً لهم هذا الفضل ومؤملا زيارتهم في فرصة أخرى .

. . .

لصاحبة الجلالة « الصحافة » فى رومانيا شأن عظيم وقوة نافذة تنحنى أمامها كل الهيئات ، والصحافى يستطيع أن يهاجم من يشاء لأن فى النظام الاجتماعى « حصانة صحفية » تحميه ، فالصحافة الرومانية تعد بحق « السلطة الرابعة » والحكومة تنشد مؤازرتها وتعتمد على نفوذها ، كما تعتمد على قوة الجيش والاسطول ، واكثر رجالها ممن تخرجوا فى جامعات الصحافة بعواصم أوربا

أو ممن حصلوا على شهادات عالية من جامعة بوخارست .

ودار جريدة « يونيفرسال » تعد من أعظم دور الطباعة في البلقان ، فهي مكونة من بضعة عشر طابقا ، ويعمل بها ثلاثة آلاف شخص ونيف ، بين محرر ومترجم ومخبر ومراسل وطابع ، وبعض هؤلاء من الفتيات اللواتي حصلن على قسط وافر من الثقافة والتعليم . وهي صباحية تصدر في اثنتي عشرة صفحة ، وأحيانا في عشرين ، ويتراوح ما تطبعه من مائة الف الى مائة وخمسين الف نسخة يومياً ، وكانت قد أصدرت في العام الماضي عدداً ممتازاً بمناسبة انقضاء نصف قرن على تأسيسها ، بلغ المطبوع منه نحو نصف مليون نسخة . فاذا علمنا ان عدد سكان رومانيا يتجاوزون عدد سكان وادي النيل بمليون نسمة ، وان أعظم جريدة في بلادنا لا تطبع نصف ما تطبعه بعض الصحف اليومية الرومانية ، أدركنا البون الشاسع بين الثقافتين .

أسس هذه الدار مسيو كاتسا ميلانو لاحدى وخمسين سنة خلت ، وهي لا تقتصر على اصدار جريدة اليونيفرسال وحدها ، انما تصدر الى جانبها عدداً كبيراً من المجلات المنوعة ، وتقوم بنشر المؤلفات العلمية والفنية والادبية وكتب الاطفال ، فهي تساهم اذن بقسط وافر في نشر فروع الثقافة في أنحاء رومانيا .

بعد ان طاف بي الاستاذ تسلاوا بمكاتب التحرير والاخبار والترجمة والمحفوظات وقسم الماكينات المجهز بأحدث معدات الطباعة وقسم الحفر والتصوير ومكاتب تلقي الانباء باللاسلكي

والبرق سألنى عن مدى نهضة الصحافة فى بلادنا . فأجبته انهـا لا تقل عن زميلاتها فى الغرب وان كان البعض منها تنقصه وسائل الطباعة الحديثة،غير ان هذا فى طريق الـكمال ومع تطور الزمن ، وفى ختام الزيارة تكرم بأخذ صورتنا حيث الفيناها منشورة فى صباح اليوم التالي وتحتها بضع كلمات رقيقة يحي بها بلاد النيل.

باريس الصغرى

روح بوخارست فى الليـل طروب مرحة ، كغادة هيفاء ، ضاحكة السن ، ناعمة البال ، تجذب الغريب الى احضانها ولو كان أشد الناس زهدا في العبادة . فهناك حرية طليقة تنفرد بالتمتع بها فتاة بوخارست دون فتيات العواصم الاوربية الاخرى . فتغشى دور اللهو والمنتديات والمستحمات ، تعشق وترقص وتلعب الورق وتعرف كيف تحيل نهارها الى ليل وليلها الى نهار ...

وهذه الشوارع التى تحمل الطابع الباريسى . تراها غاصـة بجماعات الرجال والشبان ، يحفزهم عطر الاشجار الى مغازلة النساء البارزات النهود ، انصاف العرايا ، الا من غلالات رقيقة مشجرة ، يبدون في أنوار المصابيح متلكئات في خطواتهن ، ليجعلن من وجوهن معرضا للجمال ومتاعا للناظرين !

وهذه الميادين الفسيحة ، تتخللها الحدائق والتماثيل ، وتترقرق في ارجائها شتى صور الجمال ، تحمل أسماء العظماء وأرباب الفنون والآداب ، كما تحمل الملاهى والمطاعم والمراقص أسماء عالميـة كالليدو والريجنت والمولان روج والشاه نوار ، وهذه المتاحف والمسارح وما اليها من ميدان النصر الى قبر الجندى المجهول .

أليس كل هـذا بعض ما فى باريس ؟ لذلك يطلقون على بوخارست «باريس الصغرى» ، وا كبر الظن ان فى هـذا شيئاً من العزاء لمن لا يعرفون باريس !

. . .

فباريس الصغرى هى السيـارة والراديو . السينما وناطحات السحاب . الزى الحديث والمرأة الجميلة . القبعات العالية والاندية الليلية . ترى منازلها مكتظة وعاليـة ، ثم يقل ارتفاعهـا شيئاً فشيئاً كلما ابتعدت عن وسط المدينـة الى خارجها حيث أكواخ قبائل النور . هناك تنتهى باريس الرشيقة الانيقة ، وتحل محلها بوخارست الشرقية الاسيوية ، الشبيهة ببلاد التيبت . فالعربات ذات العجلات العريضة تجرها الابقار ، كأن لم يتغير طرازها عما كانت عليه فى عهد ملوك التتار . وترى بوخارست فى أقدم صورها ، حيث الغابة والطبيعة المتوحشة ، ولباس الفلاحين العجيب الموشى بمختلف الالوان ، والبلد الوثنى الذى يذكر ماضيه ، فاذا حلت الاعياد احتفى بها أهله ، كما يحتفل البدوى فى صحرائه ببزوغ الهلال ، فيرتدون جلود الحيوانات ، ويرقصون رقص الدببة ، على حين تجد أطفال النور عراة الاجساد ، يكتسون بورق الشجر ، ويعدون فى الشوارع والطرقات .

وقد قص علينا صديق ان بوخارست هى العاصمة الاوربية الوحيدة التى ظلت متأخرة فى الفنون والآداب . ففى العهـد الذى كان لويس الرابع عشر يتناول طعامه مع موليير ، كان أمراء

رومانيا الذين يشبهون ملوك ورق اللعب ، يعيشون بأغانيهم الوثنية القديمة . فالنهضة لم تصل اليها الا فى أواخر القرن السابع عشر ، حتى أن واضعى دائرة المعارف لم يعنوا بأن يدرجوا شيئاً عنها الا فى القرن التاسع عشر . ولكن بوخارست هى الآن ملتقى حضارات قديمة وحديثة . ففيها طابع الحضارة البيزنطية والامريكية والسوفيتية ، فكأنها تحاول أن تعوض الزمن المفقود.

وبوخارست هو الشرق الذى لا يدفن رممه ولا يكنس بقاياه، فلا تزال بها تلك المنازل البيضاء القديمة العهد ، والاكواخ المشيدة من الطين والقش . وفى ضواحيها تكثر الروائح الكريهة ، والغبار الذى تثيره العربات ، والضجة التى لا تنتهى . ولا يزال الرومانى القح يقوم بما يحتاج اليه من الصناعات ، فيحوك ملابسه ويطرزها بالالوان الزاهية ، ويزينها بفراء الحيوانات التى يقتنصها كالثعالب والذئاب . ويضع على رأسه طاقية مربعة بيضاء وأحياناً مخروطية الشكل سوداء . فاذا لم تكن رومانيا فبوخارست مجموعة أجناس ووجوه وعادات وحوادث . كم من المرات سلبت ونهبت ، وهزتها الزلازل ، واجتاحتها الجيوش الروسية والجيوش البلغارية ، وهدمتها مدافع المارشال فون ما كنزى فى خلال الحرب العظمى. غير أنها استطاعت فى مدى ربع قرن أن تجعل من خرائبها وأطلالها بلداً عصرياً ، تضرب به أوربا مثلا أعلى لبلاد البلقان .

وبوخارست فى اللغة الرومانية معناه « الفرح » . وهذا حق . ففى أشد الازمات والكوارث ترى شعبها ضاحكا ، يميل

الى المزاح وعبادة النكتة . فمن يذهب الى بوخارست فكأنه ذاهب الى بقعة ينسي فيها العالم ومافيه من هموم وأشجان ، وإذا لم يكن هذا البلد الطروب عاصمة بالمعنى الصحيح ، فهو أحسن مكان للالتقاء ، بل هو بمثابة شرفة الشرق البديعة التى تطل على أوربا . ولعل الدرس الوحيد الذى نتلقاه عنه ، ليس درس الفن ولكنه درس الحياة .

. . .

فى ساعات القيلولة ، ترى الشوارع هادئة ، والبيوت غارقة فى السبات . فاذا تلطف الجو وسطعت الانوار ، هرع الناس الى الغابة المجاورة والى بحيرة سناجوف أو بحيرة بانيزا ، حيث ينتشر النور بموسيقاهم ، يعزفون على الطريقة الرومانية ، فيتخاطف الناس النغمات ، وكل منهم يطلب اللحن الذى يعجبه . فتبدأ المشاحنات ولكن بلا عواقب وخيمة ، لان الرومانى أميل الى السلام منه الى المشاكسة . ثم يضحك الناس ويتعرف بعضهم ببعض ويكثر استدعاء الاصدقاء بالتليفون . فالصيف فى بوخارست هو فصل الهوى والمرح ، وقضاء الليالي البيضاء فى ضوء القمر ، حيث ترمى الطبيعة شباكها بين تكويرات النهود ، وزهور الزيزفون العبقة بالشذى !

وسكان بوخارست لاينامون الليل ، سكارى من رائحة الزهور ومن مسرات الحياة . فاذا عادوا الى بيوتهم فى مطلع الفجر اجتازوا حدائقهم التى تزينها شجيرات الاكاسيا . هذه الشجرة

الرومانية التى تملأ الخياشيم بنفحات العطر . وبقية أنواع الزهور والورود من القرنفل الى النسرين الى الياسمين، تراها مغروسة على أفاريز الشوارع كسلاسل متتابعة .

ويا لجمال ليل بوخارست ! حيث السينمات المكشوفة، وحمامات الليدو فى الهواء الطلق . وكافة الفنادق والمطاعم والمشارب تزدحم ازدحاماً شديداً وبالاخص فى « كبسا » . وهى دار رحبة تشتمل على فندق ومطعم وملهى ومقهى. فبوخارست تجتمع كلها تقريباً فى « كبسا Capsa » بعد الظهر ، اذ أنه المكان الانيق ذو الطابع الباريسى الذى يمكن للغريب أن يلتقى فيه بكافة طبقات الهيئة الاجتماعية . أما دور اللهو « الكاباريهات » فلا يمكن حصرها ، لانك لا بد أن تجد كل عشرة أمتار داراً تختلف عن الاخرى . وهى غالباً على نوعين : الانيقة والشعبية ، فالاولى تجمع الانجليزى الذى تعود الاختلاف الى مونمارتر بباريس ، ورجال الاعمال الذين تبدو الكآبة على وجوههم وهم يحتسون الويسكى أو يتناولون العشاء مع عشيقاتهم ، والراقصات النمساويات ذوات القدود الهيفاء ، والبولونيات المقنعات فى استعراضهن الامريكى. ونحن الذين عشنا فى مصر ولم تدنسنا بعد أوضار الحياة الليلية حيث تختلط الطبقات والاجناس فى سنوات الطيش وفى عصور الرخاء والحرية المطلقة ، لا يمكن أن نغشى هذه الملاهى دون أن يأخذنا شىء من الحسرة والاشفاق لان جراثيمها بدأت تصل الينا، فهذه الامكنة تعرض تجارة زاهرة . تجارة الرقيق الابيض وتجارة

الشاب الجميل . فالأناقة في الشاب الروماني هبة من السماء ، وهو يولد ومعه سلاحه يغزو به القلوب ، حتى أصبحت مهنة رائجة تتصل بجميع الطبقات ، فمن اليهودى الصغير ذى الشعر القرمزى ، الى الضابط الوسيم الذى يعنى بتزجيج حواجبه ، الى الشاب المخنث الذى يقدم زوجته لمسرات الاصدقاء الاثرياء !

ولعل «فكتوريا جاليا» أحفل بقعة فى بوخارست بضروب اللهو والمتاع ، فهو حى الشهوات الذي لا يكد ولا ينام ، ويمكن للمرء فى آناء الليل وأطراف النهار ، ان يستعرض فى جوانبه ، ألواناً من الشهوة الصارخة المتأججة !

ومن « فكتوريا جاليا » يتفرع شارع صغير يقودك الى « دار المسرح الوطنى » ، وهو الكعبة الفنية التى تهرع اليها فى كل مساء الطبقة المثقفة ، كما أنه بمثابة الاوبرا فى العواصم الاخرى ، ومما يزيد فى شهرة هذا الملعب ، ان الاميرة رالو كراجا — حامية الفنون الجميلة — كانت تغادر قصرها فى عربة مكشوفة ، كعربة أبولو ، لتذهب الى هذه الدار ، وتشاهد المسرحيات الالمانية الرومانتيكية ، ومآسي فولتير ، وكثيراً ماطلبت أحياء حفلات تمثل فيها بعض المسرحيات القديمة فى اللغة الاغريقية .

...

والنوع الثانى من الملاهى ـ أى الشعبية ـ تعرض ألواناً رخيصة من الفن الخفيف سواء فى الموسيقى أو الغناء أو الرقص . قصدت الى أحدها تلبية لدعوة صديقى مسيو تسلاوا ، حتى

اذا التمست مقعدى ولبثت برهة أستمع الى نغمات الاوركسترا ، الفيتها موسيقى غريبة عن آذاننا فضلا عن أن رجالها يحملون آلات غير مألوفة ويرتدون ملابس ملونة ، واستوضحنا مضيفنا حقيقة الامر ، فذكر لنا أنها « موسيقى السيجان » التى تعد من أرقى أنواع الموسيقى الرومانية ، لان السيجان ـ أى النور ـ يكونون فى أوربا ثقافة موسيقية ممتازة ، فالنورى يكتسب موسيقاه بالغريزة وينفذ الى روحها بفضل مواهبه الوراثية ، فالبعض منهم يدرسها نظرياً وعملياً والبعض الآخر يتمم دراستها فى معاهد « الكونسر فتوار » . وقد كان الموسيقار العظيم لسزت يستوحى موسيقى النور ويضمنها ألحانه . على أن جدودهم يأنفون من تعلم الفن وان رزقوا آذاناً موسيقيةعجيبة . يكفى أن يسمع أحدهم مقطوعة موسيقية معقدة فتلتقطها أذنه ويوردها أمامك على أصلها بعد أن يطبعها بالطابع الرومانى .

وشغلنا عن الموسيقى والرقص بالحديث عن الغجر وشأنهم وخواصهم ، فهم يؤلفون في رومانيا وبلاد المجر نحو نصف مليون نسمة ، ومن المخجل أنهم يعرفون بالانتساب الى أصل مصرى ، على أن صديقنا الدكتور جرمانوس أستاذ التاريخ بجامعة بودابست ، يرجح أنهم وفدوا من الهند عن طريق مصر بعد أن استولى عليها تيمورلنك ، ومن المحتمل ان التتار الذين اتخذوهم عبيداً جاءوا بهم الى أوربا فى القرن الثالث كما يجيئون بالسلع ،

بدليل أن لغتهم مزيج من لهجات بعض القبائل الهنـدية ومن اللغات السامية المندثرة .

ومما يذكر عن الغجر أنهم رحل كالبدو يتنقلون من بلد الى آخر ومعهم خيامهم وعرباتهم التى هي عبارة عن بيوت متحركة ، ويزاول رجالهم — غير الموسيقى — صنع الاواني النحاسية وأجراس الكنائس والحرف الدقيقة ، ويشتهرون بسرقة الدجاج والمواشي وخطف الاطفال . أما نساؤهم فيحترفن الكهانة والسحر ومخاطبة الارواح وقراءة الكف والتنبؤ بالطالع ، ولهن براعة في الكشف ، عن رغبات الرجال والوقوف على غرائزهم الخفية والامانى المكبوتة ، ولفتياتهم جمال شرقي خلاب ولكن سرعان مايلحقه الذبول . ذلك أنهن متهتكات خليعات ، يغلب عليهن الانحلال الخلقى . وبعض هؤلاء الفتيات يردن المدن لبيع الزهور أو الصحف بينما يغشى الرجال أحيـاء الفقراء ، يقودون فى أيديهم دبا مخزوماً من أنفه يرقصونه لتسلية الاطفال !

وليس للغجر عقائد دينية معروفة، بل هم وثنيون يعبدون المال ويقدسون الشمس والقمر والخوارق الطبيعية ، ولا يخضعون في منازعاتهم غالباً إلا لقضاتهم ، ولهم أساطير خرافية مملوءة بالسحر والتنجيم .

على أن أعجب عقائد النور هى مسألة الزواج ، فتفسيره فى عرفهم «الاشتراكية فى المتعة» بمعنى أن الزوجة لاتخص رجـلا واحداً بل عدة رجال ، والطفل النورى ينشأ عادة عارى الجسم

نهاره بين الغابات والمياه وليله فى العربة أو الكوخ حيث يشهد عن كثب حياة أسرته التناسلية،ولذا فغرائزه تتفتح منذ الطفولة، وليس مايمنع من أن يعاشر الولد أمه والاخ أخته والرجل ابنته، فحياتهم التناسلية لاضابط لها ولا شريعة بل هم يلبون نداء الجنس أينما يكون!

واذن فليس من المستغرب أن تحوى موسيقاهم هذا الخلط العجيب من الرموز الغرامية، وألوان الفسق، وأن تمتزج أنغامها بما يشحذ الغرائز ويقوى الشهوات فى الجسم. والنورى يعرف الى جانب هـذا أن المجتمـع الذى يعيش بالقرب منه يحتقره ويزدريه فتجيش نفسه بالآلام وتتلون الحانـه موسيقاه بطابع البغض والانتقام وجموح العاطفـة والثورة على المجتمع الذى يغذيه فنياً.

وقد ولدت فى نفوسهم العزلة الدنيوية والحرمان المستمر، الميل للعيش فى الخيال والاستسلام العذب للاحلام، والاشتهار بالـكذب والنفاق والغش وبقية الصفات التى تدنيهم من المستوى الحيوانى. وبالنظر الى أنهم مولعون بالتنقل والترحل من صقع الى آخر فانهم كثيراً مايصطدمون بحراس الحـدود في البلاد التي يهمون باختراقها، لان هؤلاء الحراس لايحترمون عقائد النور ولا يثقون بهم!

ومن الغريب أن لهؤلاء النور جريدة تصدر فى بوخارست اسمها: «الامة الغجرية». وقد عقدوا على ضفاف الدانوب أخيراً

مؤتمراً يمثل النور في انحاء أوربا كان الغرض منـه دعوتهم الى الاتحاد ،والعمل على رفع مستواهم ،ومنحهم الحقوق المدنية والسياسية التى لغيرهم ،والتفكير فى منافسة الراديو والجاز بند لموسيقاهم .

. . .

وخرجنا من الملعب وقد استهوانى الحديث عن النور وخواصهم والاعجاب بهذا الشعب الغريب الذى استطاع أن يحتفظ في قلب أوربا المتحضرة بمظاهر الحياة البدوية الخشنة . فضربت لصاحبي موعداً فى ظهر اليوم التالى ، وطلبت اليه أن نمضى الى الحى الخاص بهم وزيارة زعيمهم ميخائيل دى كويج .

فمعظم نور بوخارست يقطنون فى بقعة نائيـة بالضواحى يطلقون عليها اسم «المحلة» . وهو حى قذر تغمره المتاجر الوضيعة التي تعرض أوانى من النحاس الاحمر وحقائب من الخيزران وعظام أسماك وقرون حيوانات . وباعة يحملون سمك دلتا الدانوب . وعربات فورد قديمة تمضى ليلها في العراء ، وتصاب بسعال مستمر فتحدث أصواتاً مزعجة . وأكواخ اتخـذت صفة البيوت ، كتب فوقها بالجير الابيض «خطيب الشعب» أو «نسر البحار» أو « هنا يسكن اسكندر ذو القرن الواحد » !

ولمحنا عن بعد خيمة كبيرة الحجم ، محـلاة بأشرطة ملونة وأمامها بعض أفراد من الحرس النورى ، زرق الشفاه ، لهم عيون براقة وشعور مجعدة وآذان ضخمة ، فذكر لى صـاحبى أنهـ خيمة زعيم النور ميخائيل دى كويج ، وقد انتخبه منـذ عامين

مندوبون يمثلون القبائل النورية ، أعطوا أصواتهم بواسطة بصمات أصابعهم . ومن الطريف أن له مجلس وزراء متنقلا ، وقانوناً وراثياً شفهياً ، وممثلين سياسيين في البلاد الاخرى .

وقد قام زعيم آخر فى تشيكوسلوفاكيا ينازعه عرشه ويطالب بسريره ويبنى مطالبته على أنه سليل أقدم الغجر البوهيميين الذين نزحوا على ضفاف الدانوب وهو يجمع الآن الاتباع حوله وقد تؤدى دعوته الى نشوب حرب بين غجر أوربا !

وميخائيل الاول يحلم بأن يؤسس دولة نورية ، وأن ينال من الحكومة الانجليزية السماح له بتأسيس «فلسطين نورية» على ضفاف الكنج بالهند . وقد خطر لصديقي مسيو تسلاوا أن يسأله فى شيء من التهكم عما اذا كان يزمع بعد تأسيس مملكته أن يلحقها بعصبة الامم ، فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة زرقاء : انه سيكون من أسمى أمانيه تحقيق هذ الامنية .

تأملات فى بحيرة سناجوف

فى صباح ذات يوم صحو عليل ، هربنا من قيظ بوخارست وتقلب الجو فى سمائها الى نزهة فى جبال الكربات لننعش القلب بهواء الجبل . وكانت الشمس قد بدأت تحسر عن وجهها نقاب الظليل ، والنور يتناثر على القباب والبروج كأنه سحيق من الذهب والبلور . . .

يالروعة الطبيعة وعظمتها ، هاهى بحيرة سناجوف التى يتخذ منها أهل بوخارست ملاذاً يهرعون اليه كلما اشتد بهم القيظ فى العاصمة ، لقد جملتها الطبيعة بما يعجز أمهر فنان عن صنعه ، فحبتها بموقع فريد بين السهل والجبل ، وأحاطتها بالاحراش والحدائق العطرة ، تخلع على أشجارها وأزهارها فى كل لحظة من شبابها وبهجتها مايجعلها دائمة التجدد متجاوبة الألوان . ونثرت على ضفافها من صنوف الجمال مايهز القلب روعة وجلالا . ولكن هل ترى الانسان قد قنع بكل هذه الصور الباسمة فوقفت أطماعه عند حدها ؟ لقد امتدت يده لتشارك الطبيعة وتتعاون معها على تنسيق صنوف الجمال ، بالمقاهى والكازينات والمستحمات ، يشيدها على ضفة البحيرة ، ويجعل منها موطن متاع

ومسرة ، وبالزوارق الصغيرة الحالمة تخطر فوق صفحتها ، وبالأنوار الخافتة المستحيية ، تسبل فى رفق ولين ، على الذين أضنت الحياة أعصابهم . . .

ما أروعها ساعة حين تقف على حافة البحيرة، تحت هذا الافق الصافى صفاء البكارة ، تستاف من الزهور النامية على ضفافها عبير العطر الجذاب ، وتصغى الى وسوسة مياهها كأنها لهثات أنفاس عاشقين ، والى دوى المجاذيف ذات الايقاع الموسيقى المتوازن ، أو تستمتع برؤية حسان بوخارست وهن يهرعن الى هذه الزوارق ، كل معها رفيق أو حبيب تنشد فى صحبته متعة للفؤاد ، قبل أن تنحدر بها السنون الى خريف العمر .

لقد تمنيت — فيما تمنيت — أن الفي الى جانبي رفيقة منهن، تحملني في زورقها الصغير الساحر ، لتقصيني عن حقائق هذه الحياة المرة الكاذبة ، الى شاطىء مجهول ننشد فيه راحة النفس وسلوانها .

. . .

لماذا يهرع العشاق والشعراء والفنانون الى البحيرات ينعمون بساعات الصفاء فى أحضانها ؟ ان من لا يعرف مؤلفات روسو لا يستطيع أن يكرم وفادة الجمال على ضفاف بحيرة جنيف ، ومن لم يقرأ تأملات لامارتين لا يحس بتلك العاطفة المشبوبة التى أذابها الشاعر على حافة بحيرة بورجيه ، بل ان من لم يتذوق جمال الادب الانجليزى قد لا تألف نفسه سحر « البحيرة الغربية » التى

خلدها بيرون فى «تشايلد هارولد» .فهل تعود شهرةهذهالبحيرات الى قرائح الشعراء أم الى جمال موقعها الطبيعى وما يكتنفها من الروابي والتلال والصخور المعلقة ، والى تلوين مياهها حتى لتراه ساعة أزرق صافياً وأخرى أسود قاتماً ، والى النسيم وقد هب وانياً بليلا ليحرك صفحتها ويراقصها في هدوء ، والى المطر وهى لاتشكوه ولا تضجر منه ، بل تحتضن ودقه الذى ينزل عليها كحبات الكهرمان ، حتى يهرع العاشق والشاعر والموسيقى لاستيحاء هذه الصور والالوان ، وتقديمها في ثوب من الفن يسبى الالباب .

فالطبيعة والفنان يشتركان فى ابراز جمال البحيرة ويتفاهمان بلغتها ويخلعان عليها ظلا من السحر والجلال ، فيخلدها الفنان بريشته أو قلمه والطبيعة بالآيات تغدقها عليها ، ولو لم يكن جمال بحيرة الرشيد لماظفرنا بوصف ابن حمديس الذى يقول فيها:

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى في مجاريها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

. . .

وفيما أنا مستسلم لوحي هذه التأملات والخواطر ، اذا بالجو ينقلب فجأة فيتجهم وجه الافق وتبكى عين السماء ، واذا بالودق ينهمر فوق صفحة البحيرة فيوقظها من سكونها وحلاوة أحلامها،واذا لصوته ـ وهو يتساقط فوق أوراق الاشجار ـ موسيقى

شجية كأنما استحالت الغصون الى أوتار توقع عليها أشجى الالحان ، واذا بصور بيتهوفن وشوبرت وهاندل تطوف بذهني متتالية ، حين كانوا يعلقون قيثاراتهم على غصون الصفصاف لتعزف على هوى الريح ، ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفية وأنغام شجية ، ثم يودعون هذه الانغام العلوية موسيقاهم .

أليس هذا التجاوب والاتساق بين الطبيعة والفنان هو سر السكون وجمال الحياة ؟

واحتمينا في جوسق بالقرب منا نلتمس فيه ملجأ يدفع عنا تدفق هتون المطر ، وفي يدى قصة « جريمة سناجوف » لباناييت استراتى لم أكن قد أتممت قراءتها بعد .

فهذا الكاتب الرومانى العظيم لم يدع بقعة ساحرة شعرية من بقاع بلاده دون أن يهيم بها حباً ويودع روح فتنتها فنه ، وها هي سناجوف يخلد جمالها العطر في أذهاننا ، بروعة الوصف يخلعه عليها ، وبصور الجمال المتعددة الالوان يقدسها ويحملها من أسرار المعاني مايدفعنا الى الايمان العظيم بخالقها

وعندى أن هذه هى رسالة الفنان في الحياة ، يجمع بين روح الواقع وبين العظمة الشعرية ، ويلبس الفن كل مايصل الى حسه وشعوره ، طابعاً آثاره الفنية بكل ماعبر في الحياة من مجد وألم ، وجلال وجمال ، فانتاجه ليس إلا صورة منعكسة لما يحس به ويراه حوله . وهو أما أن يودع روحه فنه أو يخرج لنا دمى وصوراً زائفة .

بين جمال الطبيعة المنثور أمامنا على ضفاف البحيرة ، وبين هذه الخواطر التى بعثتها فى نفسى قصة « جريمة سناجوف » . ذكرت هذه السويعات الحلوة التى قضيتها مع كاتب رومانيا العظيم - بانابيت استراتى - فى مسقط رأسه بمدينــة برايلا . فى هذا المحيط الملهم الذى قضى فيه طفولته ، وذكرت صوته الذى يسيل رقة ومحبة وهو يقص علي طرفاً من حياته ويتخلل حــديثه روح العطف على مصر ووداعة أهل مصر .

وعلى الرغم من أن بانابيت استراتى ظل يتمع بقسط وافر من ذيوع الاسم والشهرة فى عالم الادب ، فانه لم يتنصل مطلقاً من الماضي ، بل كان يعطف عليه دائماً ويرعاه، يفخر بحياة التشرد والفاقة التى مرت به فى صباه ، ويذكر سنواته الخمس التى قضاها فى الاسكندرية قبل الحرب ، يعمل فى حانة خمار رومانى اسمه «بندر» بناحية باب الكراستة ، حيث يأوى عشرات من بحارة السفن فى بهيم الليل ، يجرعون النبيذ القبرصى الاسود ويغازلون بنات الهوى !

فى روايته « تنقلاتى » يقص شيئاً من طفولته المعذبة . كيف انحدر من والد يونانى شرير اسمه جراسيمو فلساميس ، ومن أم رومانية فلاحة تدعى زويتسا استراتى . وكان الوالد يشتغل بتهريب الدخان فأخذ الولد عنه المبادىء الاولية لحياة التشرد . والام تارة غسالة، وأخرى في المهن الوضيعــة ، فاكتفى بأن يأخذ عنها لقب أسرتها . وقضى طفولة شقية معذبة لــكنها

كانت مفعمة بأحلام الشاعرية ، فكثيراً ما كان يهرب من الحانة التى يعمل بها ، ليخلو الى نفسه ساعات بأكملها على شاطىء الدانوب مستسلماً الى تأملاته البريئة . على أنه ما كاد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى نزح عن بلده قاصداً أن يطوف العالم ويمتع ناظريه بما كانت تدعوه اليه طبيعته البوهيمية الهائمة بالتصعلك ، فقضى نحو عشرين عاماً فى حالة تشرد وفقر مدقع .

وفى روايته « كيرا كيرا لينا » يسرد صفحات من شبابه ومغامراته ، فيذكر فى صراحة مخيفة كيف كان يسافر خلسة في قطارات البضاعة وعنابر البواخر حيث يستكن الجرذان والحشرات السامة ، حتى استطاع بواسطة ذلك أن يتنقل بين مصر وفلسطين ولبنان والاناضول . وكان يمضى أياماً وليالى لا يدخل فمه من الزاد غير « سلاطة البطاطس المسلوق » ويوطد علاقته فى غضون فترة تشرده بزعماء الادب الروسى المهاجرين ، زاعماً أنه طريد مثلهم لاعتناقه المبادىء الفكرية الطليقة ، وكان عزاؤه الوحيد أن يغذى عقله بالقراءة حتى يعلم الفرنسية من القاموس تعلماً ساعده على دراسة أعمال فولتير وكورنى وروسو وهوجو وبلزاك ورولان . وقد كتب استراتى كافة رواياته بالفرنسية ، ولم أعلم أنه كتب فى اللغة الرومانية مطلقاً ، بل مما يرويه عن نفسه أنه لم يحاول قط أن يفتح أى كتاب فى قواعد النحو الفرنسي !

على أن نجم هذا الاديب العبقرى الشحاذ الذى خالط

الادباء والمفكرين الروس ، وطالع أعلام الادب الفرنسي ، لم يشرق إلا فى الساعة التى شرع فيها بالانتحار . فقد فشل في أن يكون كاتباً أو قاصاً فبدأ يبيع الليموناذة في شوارع القاهرة ثم سافر الى الاسكندرية واشتغل جرسوناً فى حانة « الجندي الرومانى » فنقاشاً فحمالا ، وأخيراً رحل الى جنوب فرنسا واحترف صناعة التصوير بآلة فوتوغرافية، وفى مدينة نيس أبصر الكاتب الفرنسى الحر رومان رولان . وكان قد طالع روايته الرائعة «جان كريستوف» التى ظفر من أجلها بجائزة نوبل ، وحاول استراتى أن يلفت نظر رومان الى أنه أديب مثله ويشرح له بؤسه وشقاءه. فلم يجد أليق من أن يكتب اليه رسالة طويلة يضمنها اعجابه بشخصية جان كريستوف ، ويقص بين سطورها شيئاً من حياته الادبية بأسلوب حى أخاذ يستدر الشفقة والعطف. ولما استبطأ الرد ضاقت الدنيا فى وجهه فمضى الى إحدى الحدائق العامة وضرب عنقه بمدية محاولا الانتحار . غير أن بعض الناس أسرعوا الى انقاذه وحملوه الى المستشفى . وهناك زاره رومان رولان وخاطبه بقوله : لقد تلوت رسالتك ياسيدى . حقاً أنها شعلة من العبقرية التى تضطرم فى رأسك !

من ذلك الوقت ازدادت الصلة بين كل من الكاتب الكبير والاديب الشحاذ ، وتعهد رولان بأن يدفع نفقات علاجه في المستشفى نحو ستة شهور ، ثم أغراه بأن يكتب صفحات ماضيه فى قالب روائى على أن يقدم له ويساعده في نشره . فكتب

استراتي روايتـه الاولى « كيرا كيرا لينا » التى توارى خلف شخصية بطلها «استافرو» بائع الليمو ناذة ، فلم تلبث الرواية بعد نشرها بمجـلة « أوربا » أن ذاعت ونقلت الى اللغات الحيـة واكتسب صاحبها شهرة أدبية درت عليه أرباحاً طائلة ، وهتف النقـدة لمؤلفها بعـد أن خلعوا عليه لقب « مكسيم جوركي البلقان » !

وظل استراتى يكتب روايات شتى ، من أشهرها: تسا تسامينكا وصائد الاسفنج والعم انجل وكودين ونيراتسولا وميخائيل وهو طالب روسى كانت لصداقته أعمق الاثر فى حياة استراتى. أى من حيث توجيهه الى التعليم وتدريبه على المبادىء الاشتراكية . ورواية « بين الصداقة ودكان الدخاخنى » وفيها وصف مسهب للحياة فى الاسكندرية وهليوبوليس ودرب البرابرة، ومن أظرف ما يرويه بهذه المناسبة أن الفقراء فى الاسكندرية كانوا يبتاعون الـكوارع والعظام من بائع متجول يحمـل على رأسه صينية خشبية وهو ينادى « على الله » . وهاتان الـكلمتان اذا لفظتا بترخيم عنتا في اللغة الرومانية «المعدة الجائعة» فـكان اذا سمع نداء البائع شعر بالجوع فابتاع منه وأكل ، رغم أن الذباب على العظام كان أكثر من اللحم !

ولقد ابتدع استراتى فى كافة رواياته فناً جديداً يمور بالصور الباسمة الحزينة والاشباح المعذبة ويدنو فيها من الفن الروائى الروسى وبالاخص بوشكين وجوركي . أما أبطاله فمعظمهم من

طبقة الافاكين وصغار العمال وممن نبذهم المجتمع ، يرسمهم امام القارىء دون أن يغتصب عطفه على طريقة المذهب الوجدانى ، بل أن هذا العطف يتولد شيئاً فشيئاً من مجرى الحوادث نفسها وذلك بأسلوب هو مزيج من روح شهرزاد الشرقيـة ومن الطابع الاغريقى القديم .

ذكرت كل هذه الصور البئيسة التى مرت بحياة هذا الشحاذ العبقرى الذى أصبح فيما بعـد شيخ كتاب رومانيا . فكان السوفييت يخشون قلمه بعد أن تنكر لهم فى كتابه « نحو الشعلة الاخرى » ، وكان الاشتراكيون يهابونه بعد أن تمرد على أساليبهم ومبادئهم ، ثم لم البث أن ذكرت كيف يمضى الآن بقية حياته فى إحدى مصحات السل بعد أن أشرف على الحلقة السادسة من العمر مترقباً يد الموت بين لحظة وأخرى .[1]

. . .

ظل سقوط المطر سويعة ثم أمسكت السماء ماءها بعـد أن أذنت للشمس أن تطلع ، فركبنا سيارتنا وغادرنا سناجوف وفي القلب لوعة وأسى . وأخذت السيارة ترتقى بنا طريقاً ممهداً لايمله النظر ثم تستدير صاعدة فى طريق آخر فتبدو بحيرة سناجوف منحدرة اليها رؤوس الاشجار ، تتقطر منها أشعة الشمس ، وكلما صعدت السيارة بدت البحيرة أكمل بهـاء فى العين ، كأن

«١» مات بانابيت استراتى بعد هذه المقابلة بتسعة شهور

الهضاب والاشجار قدت بجانبها ، الى أن أشرفنا على قرية « كامبينا » لزيارة شركة « ستياوا رومانيا » إحدى كبريات شركات البترول في العالم .

وقرية كامبينا هي مثال حي لاعمال النقابات العمالية وتضامن الجماعة ، فسكانها الذين يناهزون الخمسة آلاف نسمة من عمال الشركة ، والمفروض أن التدخين محظور بتاتاً على كل من يدخل نطاق القرية، أما مساكنها فهي نظيفة أنيقة،تتخللها الحدائق والطرق المنسقة .

هناك قادني بعض موظفي الشركة الى آبار البترول التى دمرها الالمان فى خلال الحرب العظمى وهى على عمق الف وخمسمائة متراً، فالى حقول التجارب حيث شاهدت كيفية استخراج زيت البترول وتفريغه في أحواض «قزانات» ضخمة تسلط عليها النار حتى تتبخر المواد الغريبة ويستبعد « الغاز الوسخ » ثم يكرر البترول لتستخرج منه رتبه المختلفة كبنزين الطيارات ، وبنزين السيارات ، وغاز الاستصباح ، والكاروزين،وزيت الماكينات ، فالاسفلت وهو أدنى مراتب البترول .

بعد أن انتهت زيارتنا لمعامل الشركة تناولنا طعام الغداء ضيوفاً عليها ، وكان مكوناً من المأكولات الوطنية الرومانية فكنا أحرص على التهامه بشهية ، وبعد ساعة زايلنا القرية الى مصيف سنايا فى طريق معبد شق بين وديان ممرعة وسفوح نضرة.

فى جبال الكربات

أشرفنا على جبال سنايا والجو لايزال غيماً مكفهراً ينذرنا بين آن وآخر بمطر غزير ، وظلت السيارة ترتقى بنا سفوحاً وهضاباً ، والسحب تبدو أمامنا زاحفة نحو الجبال ، فيتحول اخضرار القمم الى دكنة وسواد كلون الغمام ، وعبثاً كانت الشمس تحاول أن تنفذ الي الوجود لتبعث بالنور والحرارة حتى وصولنا الى سنايا حيث صبغت أطراف الجبال نوراً وناراً ودماً .

ارتقت السيارة هضبة فبضعة صخور ثم اخترقت حديقة متسعة مترامية الاطراف الىأن بدا عن بعدقصر بلشيا يتوج أعلى الهضبة ، كصومعة الناسك فى عزلته . تحوط به حدائق عطرة نسقت فيها زهور متجاوبة الالوان كأنما صبغتها ريشة فنان يهوى الجمال،وتتوسطها نافورات يخرج منها الماء مرتفعاً ثم يهوى متساقطاً كاللؤلؤ المنثور .

وقصر بلشيا الملكي فريد في صناعته . فريد فى رشاقته . شيدت قاعاته وردهاته من الاخشاب الثمينة ، كخشب الورد المعطر والصندل وخشب بتشبين اللامع . فكل قطعة فيه تحفة فنية

رائعة كأنما صاغتها يد سيدةمتأنقة في ثيابهالاترى فيهاسوى كمالا وانسجاماً .

فهو ليس بالقصر الذى تفيض عليه ضخامة الملك وأبهة المجد ، بل أنه وكر أحلام شاعر مختبيء في ضوء الفكر . اتخذه ليشرف منه على هـذا العالم المتفانى . . . ألم يلهب جمـاله خيال الملـكة اليزابيت التى كانت توقع أشعارها باسم « كارمن سيلفا » ويبعث فى نفسها أسمى صور الحب والولع بالجمال ، ويخلق منها شاعرة يجيش صدرها بأنبل العواطف الذاتية ؟

فى هذا القصر تعيش الآن الملـكة الـكاتبة ماري ، ومن شرفته المضمخة بشذى الورودوعبير الازهارتستاف أنفاس المعاني لتسكبها شعراً فى أناشيدها الرائعة .

من العبث أن أحاول وصف جمال القصر وما تحس به النفس ساعة زيارته وحسبي أن أحيل القارىء الى ما كتبته الملـكة ماري فى كتابها « تاريخ قصر بلشيا » أو في ديوانها « أمى » فأنها شاعرة تستطيع أن تنفذ الى أعماق الـكون وسرحات الطبيعة فتبعث الخيال من مجثمه ، وتجلو أمام نواظرنا من صور الجمال سحراً يسبي العقول .

للوصول الى القصر طريق معبد شق بين بساتين ترتفع الى علو شاهق ، وبين هذه البساتين أقيمت مبان قليلة بعضها للحرس الملـكي الذين يتجولون فى كل منعطف ، ولا سيما عنـد ما يصل الانسان الى مدخل قصرى « بلشيا » أو « بليشور » والبعض الآخر

أكشاك أعدت لراحة المتنزهين. هذه البساتين النضرة ، وما تشتمل عليه من أزهار باسمة وأشجار شامخة وروائع فنية تبدو فى اطارها الطبيعى . تحتاج من وقتك أضعاف ما تستغرقه زيارة القصر ، بل أنها تبز القصر روعة وجمالا ، فان حدائق سنايا الملكية ان هى إلا مجموعة ينابيع وظلال ، وصمت وجو رقيق . على حين أن بوخارست ماهى إلا غبار وضجة ، وشمس ساطعة وطبيعة متوحشة . فبعد أن قضيت سفراً شاقاً متعباً بالسيارة ، أتذكر ما داخلنى من السرور عندما أتيح لى أن أملأ رئتى من هواء الجبل ، ومن أشجار الصنوبر التى يغمرها نور أزرق ، ممزوج بلون وردى .

. . .

تتخطى مدخل القصر فما يواجهك الصالون الكبير حتى تقف حائراً مبهوتاً ، تكاد عيناك تعشيان من لألاء هذا الضياء ، ياللروعة ! ليس هذا «صالون استقبال» انما هو معرض منسق لأروع آيات الفن الجميل . ألم يستقدم فرديناند الاول ثمانين فناناً من أطراف العالم لتزيينه ونقش أخشابه ، فظلوا يصلون نهارهم بليلهم نحو ستة شهور ؟ ثم ما هذا السقف ؟ ما أصبر الذين نقشوه حباً فى الفن وتفانياً في ارضاء رب القصر ! تقدم الدليل وضغط بأصبعه على زر كهربائى مثبت فى الحائط فاذا بالسقف البلورى يتحرك فى بطء ليجلب النور والهواء ، واذا به يكشف أمامنا عن أروع مناظر الطبيعة وألصقها بذوق الفنان وحسه !

تخطينا الصالون الى غرفة الملكة الشاعرة اليزابيت ، وقد

غطيت جدرانها برسوم زيتية آية في الدقة والاتقان . فكل رسم منها يرمز الى بطل من أبطال ملاحمها الشعرية . وفى صدر الغرفة لوحة زيتية كبيرة الحجم ، تمثل الملكة باللباس الوطنى الرومانى فاذا بها امرأة طويلة القامة ، حمراء الوجه ، تتوجها هالة من الشعر القصير الرمادى الذى يشبه أوراق الخريف .

أن الموسيقى والشعر كانا تعزية هذه الملكة الصغيرة التي ظلت طول عمرها ترتدى الثياب البيضاء وتحدب على الاطفال ، متذكرة ابنتها التى توفيت فى السابعة من عمرها ، وقانعة بالظلال التاعسة التى ترميها أشجار الصنوبر فى حدائق سنايا ، وبالاستقبالات الديموقراطية حيث كانت تحيط نفسها برهط من المعجبات بها ، اللواتى كن يسمعن منها الاشعار ، تنشدها بصوتها الرخيم تحت شجر الصنوبر أوالسنديان .

ودلفنا الى قاعة العرش ، أية روعة وجمال ؟ لقد نسقت القاعة على الطراز الفلورنسى ، وكسيت جدرانها برخام كازارا الملون ، ونقشت أركانها بالفسيفساء والمرمر ، وزينت نوافذها بزجاج « كريستال فينيسيا » ، ونثرت في جوانبها تماثيل نحاسية لافراد البيت المالك ، ولوحات تمثل الحوادث التاريخية البارزة فى الكتاب المقدس ، ونصب فى الركن الجنوبى مصطلى مصنوع من أفخر أنواع القيشانى ، أفضى إلينا سكرتير التشريفات أن تكاليفه بلغت زهاء أربعين الف من الجنيهات ، وفى الصدر « العرش الملكى » ، وهو مبطن بالقطيفة الحمراء ، يعلوه شعار الملك .

هناك رأيت سجادة وثيرة قدمت هدية من شاه العجم ، تحاكي فيهندستها أفخر أنواع السجاد الهندى في قصر أريزونا.

يصل قاعة العرش بهو استقبال منسق على الطراز العربى ، فعلى رأس الباب كتب بالخط الكوفى «بسم الله الرحمن الرحيم» وفى الصدر قبلةمن الرخام الابيض حفرت عليها أبيات من شعر الملكة اليصابات مترجمة الى اللغة الفارسية . وهذا البهو متصل من ناحية أخرى بقاعة الولائم الرسمية وبقاعة للشطرنج فى سقفها ثريا كهربائية بهيئة تمثال لامرأة ترقص فوق قرنى غزال وبين يديها أوتار تلعب عليها . وهذه القاعة تصلها «صالة للبلياردو» و «صالة للموسيقى» تتوسطها صورة جلالة الملكة الوالدة مارى تمثلها وهى تكتب قصصها،وفى ركن من «الصالة» أرغن صغير الحجم كانت توقع عليه الملكة فى طفولتها ، وهذا الارغن آية أخرى من آيات الفن الجميل ، فهو مصنوع من خشب الورد وأوتاره البالغ عددها ٢٨٠ من الفضة ، ومتصل بصمامات تخرج منها أصوات ساحرة ، ونغمات هى مزيج من طفولة وقداسة توحى الى العين ماتوحيه الموسيقى الراقية الى الاذن .

ويحتوى الجناح الغربى للقصر على قاعة للسينما والتمثيل تعرض فيها أفلام منوعة و «أوبرات» غنائية ، وفى هذه القاعة صفت مقاعد لرجال الحاشية والحرس وتنتهى بمقصورة كبيرة الحجم لجلالة الملك وولى العهد وأفراد الاسرة المالكة وضيوف جلالته.

يجاور قاعة السينما متحف حربي يشغل ثلاث غرف معروضة

فيها الغنائم التى سلبها الامراء القواد من الاتراك، وبعض أدوات الصيد التى كانت تستعمل فى العصور القديمة

ومررنا بالقاعة التاريخية التى انعقد فيها مجلس الوزراء ليعلن حياد رومانيا فى بدء الحرب العظمى ، ثم ليعلن فيها مرة أخرى بعد عامين دخول رومانيا الحرب الى جانب الحلفاء ، كما مررنا بالغرفة التى مات فيها الملك فرديناند ، والغرفة التى عرضت فيها جثة مسيو دوكا رئيس الوزارة الذى اغتيل منذ عامين ، ولكن دع عنك السياسة وشواهد التاريخ وتعال نرقى الدرج لزيارة القسم الخاص بجلالة الملك كارول الثانى ، وقف محدقاً بهذه اللوحات والتماثيل والعمد تتوجها ثريات كهربائية حتى يبلغ منك الاعجاب حد الوله والذهول .

انتهينا الى الطابق الثانى ، وتخطينا أروقته الى المخدع الملكى فاذا به أنيق فى زخرفته ، بسيط فى أثاثه ، يزين القاعة الاولى مكتب دقيق الصنع عليه محبرة وأدوات كتابية وأوراق يعلوها التاج الملكى ، ثم آلة تليفونية . ويتصل بالمخدع متزين وحمام صغير على نظام حمامات البواخر ، أما بقية القاعات والغرف فبعضها معد للضيوف ، والبعض الآخر مخصص لاقامة « البرنس ميشيل » ولى العهد .

. . .

لم تأذن الساعة السادسة مساء حتى كنا قد فرغنا من زيارة

القصر ، وهبطنا من حدائقه نلتمس الخروج ، فبدت قباب سنايا وأبراج كنائسها فى منخفض كما تبدت روابي الجبال أمام نواظرنا بعد ان كانت تتيه عن بعد خيلاء وكبراً بارتفاعها . أليس أصفى ماقى الجبل عظمته وشموخ رأسه ؟ فاذا صاقبته وقربته تلاشت من نفسك الرهبة التى تشعر بها نحوه .

. . .

ان آية الجمال فى سنايا لتمحو آية ليل بخارست ونهارها ...

هنا الشعر والالهام والمرآة ! حيث لا تلتقى بالمرأة التى تعودنا ان نراها فى المزارع الرومانية او فى المصانع تعمل وتكد وتشقى طول يومها . بل بحور تستشف فى قسمات وجوههن اسرار الجمال وكماله الفنى ومراميه ومغازيه .

وبديأ ان الرومانيين حين نعتوا بلادهم « بباريس الصغرى » لم يقصدوا باريس من حيث الفن او الادب أو الموسيقى بل قصدوها من ناحية المرأة ...

فالمرأة هنا تعطى رومانيا لونها الخاص ، وهى أكبر عامل في تكوين السحر والذوق اللذين يكيفان هذه البلاد . وبعد أن كان جمالها الهاماً أصبحت هي الالهام نفسه ، حتى ان أول سؤال يبادرك به الرجل الرومانى اذا عرف أنك غريب : هل اعجبتك نساءنا ؟

. . .

بعد أن قضينا ليلتنا وسحابة النهار في مصيف سنايا ركبنا

سيارتنا الى « بروديال » وهى تبعد نحو ساعة ،ومنها الى « تمسل » على الحدود المجرية لتمضية الليلة .

وانطلقت السيارة بنا فى جبال الكربات فتارة تخترق قتام الغمام أخرى تعلوه فيبدو فى انحدار الوديان كلجات من دخان ، وتسكب الشمس شعاعها فوق الثلوج التى تكسو روابى الجبال فيتحول نصوع الثلج الى بحيرات من زئبق يتلألأ تحت سماء من مرجان .

فى هذه الساعة العظيمة يتجهم جبين الأفق ، كأنما يختنق من تراكم السحب الجاثمة فوق صدره ، وما إن يخبو شعاع الشمس حتى يصليها بوميض من برق ووابل من رعد ، تستد له المسامع فتعدو السحب منذعرة فى نواحى الفضاء ويتشبع الهواء بذرات من الماء تسطع بين آن وآخر فى خيط من ضياء قوس قزح ، ثم يرتفع فى الجو ضباب ضئيل خداع لاتلبث السحب أن تتلاطم فى أثره فيهمى الماء مدراراً بين رعد يغدو وبرق يروح . وكلما توالت هذه الصور الغاضبة من المعركة الدائرة فى السماء ، تملكنا إحساس من القلق والوجل ، وظلت قلوبنا تخفق من روعة هذا المشهد العظيم .

ما بال الطبيعة فى جبال رومانيا تختلف عنها على ضفاف البسفور ؟

فالطبيعة هنا جبارة عاتية تبتسم لها الشمس ساعة ويتكرر عبوسها إلى حين احتضار النهار ، أما فى استامبول فهى دائمة

متجددة بهجة ، توحى أسمى معانى الشعر ، وتبتعث من أعماق النفس كوامن الاعجاز . والاتراك لم يخطئوا يوم اتخذوا الهلال والنجم شعاراً لهم ، ذلك أن الهلال رمز للحياة المتجددة الباسمة ، والطبيعة الضاحكة المتغيرة صورها فى كل لحظة من لحظات النهار ، والنجم هو قلب العالم الذى يفيض نوراً وضياء . ترى هل فطن قدماء المصريين الى سر هذا حين رمزوا لبلادهم بجسد امرأة مرقط بالنجوم تبسط يديها نحو الشرق وأطراف قدميها الى ناحية الغرب ؟

وصرفنى عن التفكير في هذا السؤال الذي لم أجد له جواباً وصولنا الى « تمسل » فغادرت السيارة الى النزل الذى اخترناه لاقامتنا ، والتمست لساعتى مصطلى فى بهوه أجفف عليه ملابسى الى أن يحين موعد العشاء .

وفى اليوم الثالث نهضنا من فراشنا مبكرين ، وبعد أن تمتعنا بشمس « تمسل » الوضاءة وجوها المعطر بأريج الجمال ، عدنا بالسيارة الى « بوخارست » ومنها استقللنا القطار الذى يغادرها فى الساعة السادسة مساء لنبلغ جورجيو في منتصف الساعة العاشرة ، ومن مرفئها المسمى « ميناء رمضان باشا » تقلنا السفينة النهرية الى « بودابست » فى أربعة أيام .

أيام من الدانوب

الدانوب — أو الطونة — هو النهر الشعري الحالم ، الذى يجرى بين ربوع شرق أوربا ، ويفصل رومانيا والمجر عن بلغاريا ويوجوسلافيا . وكيف لا يكون الدانوب شعريا ، يبعث فى النفس أسمى صور الخيال ، وهـذه شمسه المتألقة ، وجود القرمزى الدافىء ، وأمواهه التى تحبو فى تباطىء شجي ، تحت أديم صاف . تلك المياه التى ناجاها جوهان شـتراوس فى قطعته الموسيقية الخالدة « دانوب بليه ـ الدانوب الأزرق » !

كانت الباخرة الوانية فى سيرها ، تسير بنا فى عرض النهر فتتكشف أمامنا مناظر الـكروم النضرة ، والمراعي الخصبة التى ترتع فيها الخراف والماشية . وقوارب الصيد المبعثرة هنا وهنالك ، وأكواخ صيادى السمك ، وسطح الدانوب وهو يبتسم للشمس وقد خلفت فى نواحي الأفق ألوانا برتقالية زاهية ، والى القمر وهو يرمي ظلاله المستطيلة خلف الباخرة ، والى النسيم وهو يمضى في همس وسكون فوق الأمواج المتراقصة !

يبدأ موسم الملاحة فى الدانوب من مايو وينتهى فى أواسط أكتوبر ، إذ تتجمد مياهه وتتحول الي ثلوج ، يجد فيها هواة

الانزلاق متعة وغبطة . والفلك التى تجرى فى عرضه ، كبيرة الحجم ، ضخمة البناء ، بعضها لشركات الملاحة الالمانية وهى تتميز بشارة النازى « ها كين كرويتس » ، والبعض الآخر للشركة النمسوية المختلطة . وعلى النهر أقيمت قناطر وجسور وموانىء وجمارك . ويعترض مجراه أحيانا صخور وجزر وجنادل ، ولذا فالملاحة فيه تحتاج الى قيادة دقيقة وربان ماهر يميز وعورة الطريق .

. . .

جمعتنى رفقة السفر فى الدانوب بطائفة ممتازة تمثل الفكر والثقافة فى عالم الغرب . هم فريق من الكتاب والصحفيين ، غادروا أوطانهم فى رحلة نظمها « نادى القلم الدولى » التماسا للراحة وتهربا من الواجبات اليومية المتشابهة التى تغمرهم وترهقهم باندفاعها المستمر . وكان معنا فريق آخر من أعضاء مؤتمر النحل وجهتهم الى بلغراد . وبضع عشرة فتاة من جامعات ميونيخ ، أبصرتهن ذات صباح فوق سطح الباخرة ، وقد احتللن مقاعد الشرفة ، يستقبلن منها شمس الدانوب الذهبية ، لايستر أجسادهن سوى لباس قصير .

وزاد اعجابى بهن أنى ألفيت الى جوارهن ، رفاقا يجدن منهم كل رعاية واحترام . فمن العرف المتبع فى الجامعات الاوربية مايفرض على الطلاب القيام برحلات الى الخارج فى خلال عطلة الصيف ، بقصد إعداد أنفسهم من الناحية الثقافية وتنمية الشعور بالمسؤولية وبث روح المخاطرة . على أن يترك لهم قسط من الحرية

يدربون على استعماله ، دون إسراف أو مغالاة . فاذا حلت العطلة ، قسموا أنفسهم الى جماعات ، كل جماعة تتكون من عشرة شبان وبضع فتيات ، فيسافرون فى رحلات متواضعة على ظهر البواخر « الدك » ويحملون معهم زادهم ومتاعهم وموسيقاهم .

حدثنى رئيسهم بقوله : نحن معشر الجامعيين لا ننتقل بالفلك من أجل التنعم بالفراش الوثير والتماس الترفيه وجودة الطعام . كلا ! فنحن أبعد ما نكون عن ذلك ، وإلا فقدت الحياة قيمتها فى أنظارنا . ها ترانا نتحمل شظف العيش وخشونة المركب من أجل أن نرود البلدان للدرس والاطلاع وتكوين فكرة عامة عن تباين الثقافات وتفهم روح الشعوب . تلك الروح الماثلة بين الأطلال والمتاحف . المعبرة عن المجد التالد والطابع القومى الخاص » .

فتى يفطن الى قيمة هذا الكلام أغنياؤنا . أولئك الذين لا يفهمون من السياحة سوى أنها وسيلة للرفاهية فى البواخر والظهور فى الفنادق الكبرى ، ومقاومة ضجر النفس وسآمة القلب بارتياد المراقص ودور اللهو ، والبحث عن السعادة الوهمية الهاربة فى اقتناص اللذات وانتهاب المسرات ؟ !

على أن لهؤلاء الجامعيين أساليب ديمقراطية استهوتنى . صعدت اليهم فى المساء وكانوا يتأهبون لنشر بطاطينهم وأغطيتهم فوق سطح الباخرة ، كقبيلة تضرب خيامها على حافة الصحراء . وبدأت السهرة بأن شرعوا ينشدون بأصوات عالية أغنيات المانية

مفعمة حيوية وحماسة . وخطر لى أن أطلب الى واحد منهم أن يسمعنا نشيدهم القومى « ألمانيا فوق الجميع » . لكنه اعتذر فى رقة ولطف ، لأن للنشيد قداسة وحرمة ، فمن المبتسر انشاده خارج آلمانيا . ثم ألحوا علي بدورهم ان أسمعهم شيئاً من الأغانى المصرية ، فتولانى الخجل ، إذ ذكرت أن كل ماأعرفه عن أغانينا ضعيف ، كله رقة وخنوثة ، فلا يصف غير الضنا ولوعةالهجر !

وطابت صحبتي مع كاتب سويدى كان عائداً إلى وطنه بعد أن قضى شطراً من الصيف على سواحل وارنة ببلغاريا . أتدرى فيم كان حديثنا فى خلال الايامالأربعة التى قضيناها فىالدانوب ؟ لقد كنا نلتقىمصادفة او نتزاور الفينة بعد الفينة . فنظل نتجادل ساعات برمتها فى شؤون تزيد أو تقل فى الأهميه . إلى أن وقفنا مرة عند حد معين ، حول مشكلةالازمة الفكرية فى العالم. ولقد كان طبيعياً أن يستهوينا الحديث عن نفس الموضوع الذى تدور فيه كلمة الازمة على كل الشفاه . فالذهب والفن والتجارة والسياسة والزواج. كل هذه فى أزمة يشكو منها العالم فى تنهدات عميقة ، وإذا كان الناس يعلمون أنه من الصعب أن يجد الانسان وظيفة أو مبلغا يقترضه ، فكم هم الذين يفكرون برهة واحدة فى وجود أزمة أشد خطراً من الأولى — أعنى أزمة الفكر ، أزمة الروح .

قال صاحبى : إن عالم الافكار والعواطف أصبح مضطربا فى العصر الحاضر ، ولكن لايحسن أن نذهب مع هذا إلى حد

التشاؤم ،وأن نظن أن ميادين الفنون والآداب والفلسفة هى أقل قيمة مما كانت فى العصور الماضية . والأزمة الفكرية التى تجتازها ترجع إلى أمور متباينة ، منها ما هو واضح مباشر ، ومنها ماهو مبهم عميق . فمن المعروف أن طابع هذا الجيل هى المنافسة العنيفة ، بعد ان أصبحت الحوائج اليومية كالأشباح المخيفة . وهذه المنافسة المادية من الأسباب القوية التى تمنع الأفراد من تغذية عقولهم ، ومن تذوق الآداب على وجهها الصحيح ، والنقود الضرورية لدفع أجرة المسكن أو الغذاء أو الاشتراك في الملاهى وفى الالعاب الرياضية تقضى على جمال الاناشيد التى ترتلها القلوب المترعة بالعواطف والجمال .

— ولكن أليس الصراع فى سبيل كسب الخبز اليومى شيئاً عرفه الناس من أقدم العصور ؟

— أجل . ولكنه الآن أشد قسوة . ففى العصور التى سبقت الآلة وما تبعها من تقلبات اجتماعية ، كان المحيط الانسانى أسعد وأهنأ حالا . فكان الممول لايركن فى استثمار ثروته إلا الى سواعد الرجال . ولذلك كان عدد العمال فى كل أمة من الأمم كافياً للقضاء على أزمات البطالة . ولكن الآلة الحديثة ، احتلت مكان العامل ، وجعلت الحياة شيئاً قلقاً مضطرباً ، فكيف يفكر الانسان فى الشعر والفلسفة وهو لا يدرى كيف يشبع غرائزه الطبيعية . مع العلم بأن حوائج الحياة المادية ليست هى كل مايقضى على تقدم الفكر . فهناك تطرف فى ممارسة

الألعاب الرياضية لايساير نهضة الفكر مطلقاً . أضف الى ذلك أن الميل الى المساواة التامة ـ أعنى تفشى الديمقراطية ـ يدفع العناصر السفلى الى الاتساع وغمر العناصر المفكرة الأخرى بما يترتب عليه القضاء على نفوذ الطبقة الممتازة . وعلى كل فلا محل للتشاؤم ، لأنه لايزال فى العالم من يفكر ويكتب ، بل ويسرف فى الكتابة ،ولا يزال فى العالم من يقرأ ويتذوق لذة القراءة .

وكان موعد العشاء قد أزف ، فنهض صاحبى واختتم حديثه معى ببعض العبارات الطلية عن جمال الأدب القديم ، عازياً الى الأدب الحديث انه لايمثل العصر الذى نعيش فيه ، فالحرب مثلا أحاطت الانسانية بفواجع بلغت من الهول مبلغاً عظيما ، ومع كل لم تجد الى الساعة الشاعر الذى يبكيها ، وفى هذا ما يدل على اننا نسير في آدابنا سيراً مضطرباً ، وأن الشعراء ليسوا على ثقة من حاجات النفوس، فلا يستطيعون الوصول إلى هدف معين .

. . .

ووقفت السفينة فى بلغراد فصعد اليها حشد من الشبان والفتيات اليهود ، ولعل وجهتهم كانت « أرض الميعاد » كعبة آمالهم ورمز وحدتهم . لكن كان يخيفنى بريق عيونهم الممزوج بالكراهية والحسد ، وضجيج أصواتهم التى كانت ترتفع فى سجو الليل بأناشيد عبرية لشاعرهم الأكبر « بياليك » . يرتلونها فى نغمات بطيئة محزنة ، كأن كل قطرة من الدانوب ممتزجة بذكرياتهم وآلامهم .

وعرف واحد منهم انى مصرى ، عربى ، فحرص على أن يتودد الى ويلتمس الوقوف على رأيى بصدد المشكلة الفلسطينية ، ولما كنت لا أحب التكلم فى الشؤون السياسية ولا أميل الى الجدل فى الأمور الدينية فقد احتفظت برأيى وامتنعت عن أن أدلى اليه بفكرة ما. أفضى الى مرة عامعناه : اننا نغذى فلسطين بعقول منظمة وأفكار حية ، وسوف نخلق منها أمريكا جديدة . ها أنتم ترون كيف تحولت المساحات الشاسعة من الأراضى المهجورة الجدباء إلى بقاع خصبة وحدائق غناء . ففى خلال فترة قصيرة ارتقينا بفلسطين من ولاية عثمانية عتيقة إلى بلد أوربى منظم على قواعد عصرية .

— ولكن ماذنب العرب ؟

— انها كفارة يقدمها التاريخ. لقد اضطهدنا وطردنا وأصبحنا مبعثرين هنا وهناك فوق هذه الكرة الأرضية . بين أناس يكرهوننا ويحملون لنا كل بغض وموجدة ، اذكروا أننا نعيش من غير دولة ولا حكومة ، فاذا عدنا الى فلسطين فهى وطننا القومى ومهد آبائنا الأولين .

. . .

لم يبق إذاً سراً مكتوماً أن هذه الرقعة الصغيرة من المعمورة هى الشغل الشاغل لجميع يهود أوربا ، وأن الأموال والهبات التى تدفع « الصندوق » من أجل تهويد فلسطين هى ضريبة يدفعها كل يهودى فى أنحاء العالم طواعية واختياراً ، حتى أصبحوا يتنافسون فى

البذل والعطاء من أجل تحقيق حلم ملك فلسطين ، واستعادة عرش سليمان ! ولكن السر المكتوم الذى لم أكن أعرفه ، وربما يعد من التعاليم الدينية عندهم ، هو تشويق الفتيات للهجرة الى فلسطين ، وتصوير السعادة بين ربوعها فى صورة الفردوس الذى تفيض التوراة بوصف ألوان هنائه . فان هؤلاء الفتيات اللواتى التقيت بهن على ظهر الدانوب ، كن متحمسات وهن يحدثننى عن السعادة التى تنتظرهن فى تلك الأصقاع النائية . وعبثاً حاولت أن أبعثر أحلامهن فأبرهن لهن على أن فلسطين أصبحت لفرط ضيقها لاتستطيع تموين أهلها . وأن أغلب مايرد من تبرعات اليهود انما ينفق على الصحف وعلى الدعاية الجوفاء التى لاتنقطع حتى يعيش القوم على الدعوة الصهيونية من دم اليهودى الأوربى أو الامريكى الذى لايعرف عن فلسطين شيئاً !

أجل ! لقد تمثل أمامى فى تلك الساعة شبح فلسطين الشقية المنكوبة فى زيارتى الأخيرة لهـا عام ١٩٣٣ ، وقد طغت عليهـا جموع اليهود ، فتلم شعثهم نقابات الهستدروت وتقطعهم الأراضى وتمدهم بالقروض وتدفع إليهم أفدح الأجور فى سبيل مزاحمة العامل العربى ومطاردة الفلاح العربى . وفى الوقت الذى يعمل فيه اليهود على تنظيم هيئاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية وجمع التبرعات من كافة أنحاء العالم لانعاش فكرة الصهيونية وافتتاح المعاهد ودور الثقافة ، ترى العرب متفرقين ، لاتجمعهم وحدة ولا يملكون سوى الأرض النكدة النبات . فاليهود يجلونهم عن مزارعهم وأراضيهم ،

بعدأن يغروهم بالمال،وهم يستغلون سيطرتهم على الأسواق الاقتصادية ونفوذهم فى عالم السياسة والفكر لاستعمار فلسطين باسم فكرة الوطن القومى . وقد صدق جيوفانى بابينى حين قال في كتابه «جوج» : ان اليهودى واحدمن اثنين ، فهو إما أن يكون سيد مستبد فى دولة المال ، أو فوضوى قدير فى عالم السياسة والتفكير !

. . .

وأصبحنا فى اليوم الثالث ولا حديث للركاب سوى جمال « بوابة الحديد » ووصف الحصون والقلاع المقامة عليها ، فلما كنا قبيل الغروب تبدت هذه الجبال عن بعد ، فاذا بها سفوح سوداء قاسية ، قامت على ضفتى النهر وقد انحصر المجرى بينها فى بوغاز ضيق لايسمح إلا لسفينة واحدة بالعبور ، وتمهل الربان فى السير،ثم مال بالسفينة وتقدم متباطئاً حتى لاترتطم بالسفوح . ووقفنا نحن فى مقدم السفينة وهى تسير بنا فى بطء وتنساب كالأفعى بين الصخور ، فكان لنا من جمال الغروب وانعكاس ألوان الشفق على هذه الصخور والجبال ما أهاج خيالنا وسما بأرواحنا إلى عالم الغيب وجرى بها صوب الاتصال بالمجهول .

وأشرفنا على حدود المجر ، عند قرية موهاتس ، فوقفت السفينة النهرية لتفريغ مشحونها ، وانتهزنا الفرصة فنزلنا نتجول فى أنحاء القرية ونستمع إلى موسيقى النور . حتى إذا كنا فى فجر اليوم الخامس تبدت بودابست وقد فتحت صدرها للدانوب ، فاحتضنها وحنى عليها حنو المرضعات على الفطيم .

بودابست

« ملكة الدانوب ـ و ـ عروس المدن المدنية »

ليس سحر الدانوب وحـده حين يسجو الليل ويتثاءب النهر مستقبلا زوارق العشاق وهي تحبو في عرضه متهادية ، ولا جمال الجبال الصغيرة التي تتخلل بودابست حين ترقاها في ضوء القمر بين شـدو القماري وشذى الزهور ، ولا « برج البزابيث » الخالد العظمة حين تشرف من قمته على منظر غروب الشمس أو تترقب مرآى القمر الجديد ، أو تشهد كيف يتعانق الليل والنهار حتى يفنى أحدهما في صاحبه . ليس هـذا هو سر فتنة بودابست وطابع سحرها . إنما يجذب الغريب اليها روحهـا الشرقية القديمة الباقية على مر الأجيال ، والممثلة في الأبنية الضخمة المتجانسة التي تمتاز بطرازها المنحدر ذي القباب والسقوف المنحدرة . ففي كل بقعة من بقاع بودابست روح شرقية نبيلة . بحيث تشعرك في قرارة نفسك انك لست غريباً عن هذه البلاد ، بل تتملكك نشوة فياضة لاتدري كنهها ، كأنما أنت في وسط مشبع بمسرات الحياة ، وفي جو كله وحي وشعر وإلهام .

والمجري في طبعه الشرقي يمثل أسمى الحضارات الشرقية في

أنبل معانيها ومدلولاتها . يتحدث إليك فتأنس اليه ، وتحتك به فتزداد ثقة بخلقه . فالروح الشرقى متأصل فى نفسه وفنه وموسيقاه . وهو يصبغ شعره وأدبه بعطر فياح من إحساس الشرق الفياض

اصعد الى جبل سانشى كلاتو فى « بودا » تر مشهداً عجيباً فريداً فى روعته وما يبعثه فى النفس من شعور جديد ، فمن هذا العلو الشاهق يبدو لناظرك جمال المدينة العظيمة التى اتخذها الهنجاريون منذ هجرتهم من جبال أورال مقر حضارة مجيدة ، وهذا الدانوب يشطرها شطرين ، كما يشطر نهر النيل مصر ، فالأول وهو بودا ، يشمل قصور آل هابسبورج وكنيسة التتويج ودور الوزارات والمتحف الحربى وأحياء الطبقة الراقية المشيدة دورها وقصورها فوق القمم الزاهرة ، تتخللها الحدائق والغابات ، وتنساب العيون الطبيعية والينابيع الكبريتية فى أرجائها .

وكانت مدينة بودا تحوى فيما مضى نحو أربعين مسجداً ، شيدت فى إبان الاحتلال العثمانى ، ثم تحولت بعد الجلاء عنها وبمرور الزمن الي كنائس ومتاحف وملاهى ، حتى ان مسرح بودا كان فى الاصل مسجداً .

والمدينة الثانية « بست » كانت العاصمة القديمة للمجر ، خربها التتار وأحرقوها وأغاروا على سكانها ، ثم أعيد انشاؤها فى عهد الملك لاديسلاس ، ووضع لها نظام نيابى ثابت وحكومة منظمة ، وهى الآن مظهر الحياة العصرية والاجتماعية ، بل انها لاتقل عن باريس جمالا ودلالا . وتصل المدينتين عدة

جسور تمتاز برشاقتها وجمالها الخلاب، كأشرطة من الحرير الموشى بخيوط من ذهب الشمس !

وإذا كان الدانوب بزرقة مياهه وجسوره البديعة المعلقة ، وجزيرة سانت مرجريت بموقعها الفريد فى قلب المدينة ، وما يتخلل حدائقها من ألوان المتاع والمسرة ، فأن دار البرلمان المجرى وقصور آل هابسبرج والمتاحف والكنائس والتماثيل لا تقل امتاعا للنفس عن كل معانى الجمال المنبثة فى الطبيعة ، بل هى تشهد أن الانسان هو أيضاً خالق بعض هذا المجد والجلال .

ما بالك كلما وقفت تستشف نقوش البرلمان بالغاً ما بلغ صغرها اهتزت نفسك الطامحة الى أسمى صور الجمال والتمست تفسير الرموز والتعابير التى أودعها رجل الفن لوحاته ورسومه، بل تجاوبت بين بصرك وحواسك نفس المعانى التى كانت تجول فى مخيلته .

أما دار البرلمان المجرى فتعد أفخم عمارة فى العالم مشيدة على الطراز القوطى ، وضع تصميمها المعمارى شتيندل ، واستغرق بناؤها خمسة عشر عاماً وبلغت تكاليفها مائتى مليون بنجو ،أى مايقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات . وقد شاءت إرادة الشعب بعد أن ظفر بالدستور أن تبنى دار الشعب على الضفة الثانية للدانوب المقابلة لقصر الملك ، لكى تنازع القصر سلطته وتمثل إرادة الأمة وعظمة الديموقراطية .

فمنذ عام ١٨٤٨ كانت تحكم المجر حكومة أجنبية لا تمت الى

أهله بصلة ، فشبت قلاقل وثورات عنيفة انتهت بانتصار الشعب وظفره بالدستور . وقد بدىء فى تشييد هذه الدار عام ١٨٨٧ وافتتحت عام ١٩٠٣ بعد ان اشترط زعماء الشعب ان تكون أحجار البرلمان . وكل أدوات البناء ومواد العمارة من أرض المجر فلا يدخله شيء أجنبي . وأن يكون طرازه من الداخل شرقيا ومن الخارج قوطيا حتى يثبت بذلك ان الهنجاريين جاءوا الى أوربا وهم يحملون حضارة الشرق وروح ثقافته .

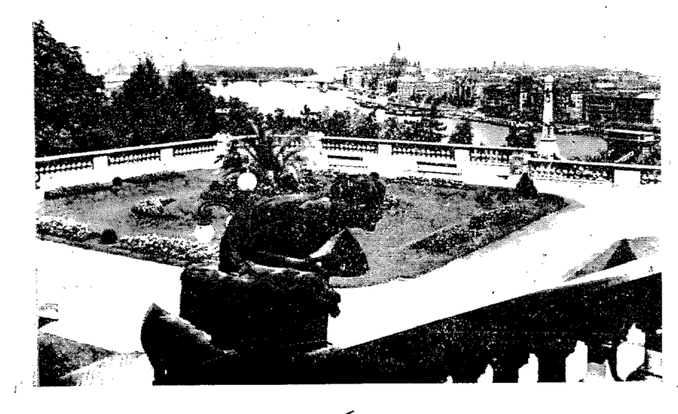
هذا البناء الخالد العظمة يمثل اسمى معانى المجد والجلال ... فكل حجر من أحجاره آية ناطقة من آيات الجهاد في سبيل الدستور كلما ارتقينا درجاً من أدراجه الخمسين أحسسنا اننا نقترب من مثل الحرية العليا ، وهذا الدرج المؤدى الى مدخل البرلمان عرضه نحو ثلاثين متراً ! يا للروعة ! ماكل هذه البوابات والعمد المؤدية الى الفناء الداخلي وما هذه الثريات واللوحات والتماثيل التى يلمع ذهبها في نور الفضاء ؟ بعضها يمثل حفلة تتويج فرانسو جوزيف الاول والبعض الآخر نقشت عليه معاهدة برلين ؟ كم من مهندسين رسموه وفنانين نقشوه ؟ وكم من جهد ومال ووقت وعبقرية اشتركت فى بنائه ؟ كلا ! ليس هذا برلمانا كبقية برلمانات العالم ، إنما هو هيكل الوطن ، هو مظهر عزته وقوته وعنوان فخاره الممثل للاجيال جميعاً !

بعد ان تركنا معاطفنا وقبعاتنا فى قاعه الزوار ، غشينا غرفة المطالعة فقاعة التدخين فالمكتبة فمتحف البرلمان ، وهو يحتفظ

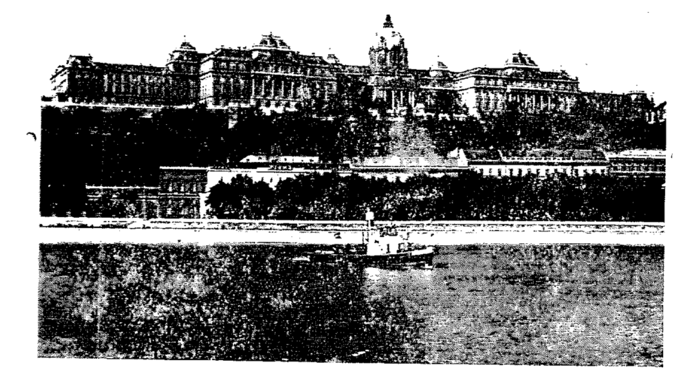
بالنسخة الخطية للدستور وبمعاهدات ووثائق ومستندات تتعلق بالحياة النيابية ، وبالمسدس الذى أطلقه أحد نواب المعارضة على رئيس الحكومة عام ١٩١٣ . فقد تجرأ الرئيس على أن يغير احدى مواد الدستور ، فوقف النائب يتكلم زهاء ثمانى ساعات مبيناً شناعة هذا العمل ، فلما حاول رئيس الحكومة مقاطعته واسكاته حمل عليه النائب المعارض فى هذه المرة ، لا بلسانه ولكن برصاص مسدسه !

ومررنا بالردهة المفضية الى مجلس النواب ، وفيها خمسون تمثالا ترمز إلى الحرف والصناعات في بلاد المجر ، وانتهينا الى قاعة النواب ، فاذا بها ٢٤٠ مقعداً بعد ان كانت ٣٥٢ ، فقد كانت المجر ولا تزال من ضحايا الحرب العظمى حتى أنها فقدت كثيراً من المقاطعات التى سلخها الحلفاء عنها وضموها الى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ، فأصبح سكان المجر ثمانية ملايين نسمة بعد أن كانوا ثمانية عشر مليونا !

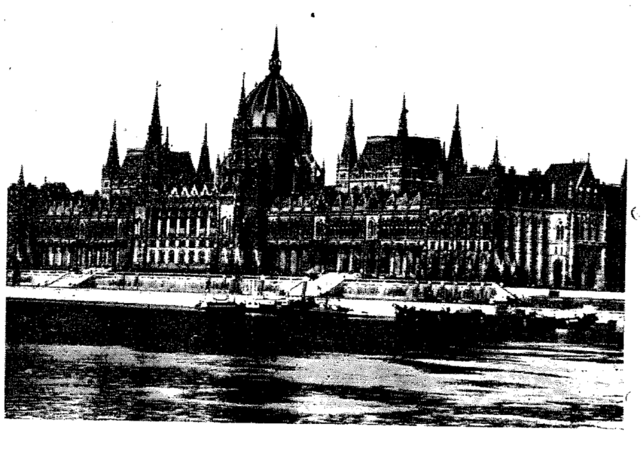
وفى قاعة النواب لوحة زيتية كبيرة من رسم الفنان يوليوس بنسور تمثل الامبراطور فرنسوا جوزيف يستقبل النواب فى الاحتفال بمرور خمسين عاما على ارتقائه العرش ، الى جانبها لوحة أخرى عرضها نحو عشرة أمتار تمثل الهنجاريين فى العيد الألفى لتأسيس مملكتهم وهذه اللوحة الثانية من رسم الفنان المشهور مونكاشى



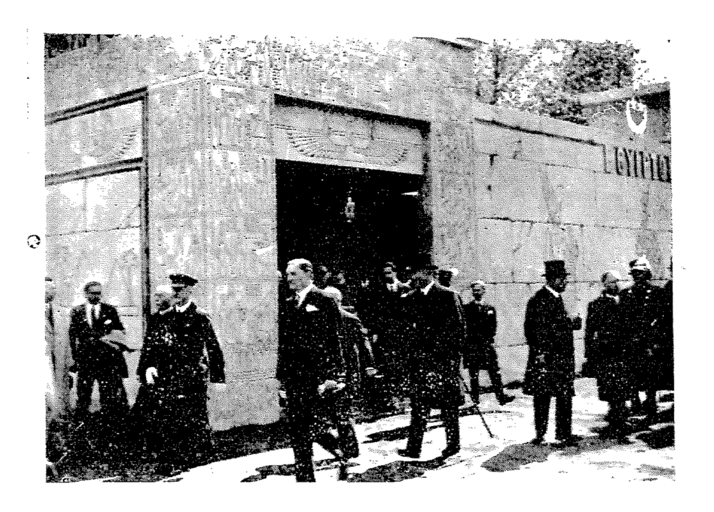
فى حدائق القصر الملكى المطلة على الدانوب



القصر الملكي



دار البرلمان



نائب الملك عقب خروجه من القسم المصرى بمعرض بودابست

وفى طريقنا الى مجلس الشيوخ ، وقفنا برهة تحت قبة البرلمان ونحن خاشعون ، فهذه القبة بجدرها المكسوة بالخشب المنقوش والرسوم البارزة المموهة بالذهب ، وعمدها المزينة بتماثيل ملوك المجر ، وهى بأثاثها وفرشها الوثيرة تنافس أجمل قاعات العروش فى قصور الملوك . وهذه القبة البالغ ارتفاعها نحو التسعين متراً تصل قاعة النواب بقاعة الشيوخ ، ويعقد المجلسان تحتت هذه القبة عادة بهيئةمؤتمر ، فيفد النواب من جهة الشمال والشيوخ من اليمين ، أماالملك فيفد من الباب الأوسط لافتتاح الدورة البرلمانية والقاء خطاب العرش .

وماذا أصف من جمال قاعات الاستقبال وما اليها من صالات التدخين،وغرف الوزراء ،ومكاتب المجلس،والمطعم المزينة جدرانه برسوم رائعة ، ونادى السباحة الخاص بالنواب ، والسكرتارية ، وقاعة الصحافة ،وهى كلها مزينة بالرسوم الزيتية والنقوش الناطقة بجمال الفن ، وبالستائر الحريرية والسجاجيد الوثيرة ، وأكثرها يشرف على الدانوب وجسور الدانوب .

. . .

وعبرنا النهر فى زورق بخارى إلى القصر الملكى . وهو قصر قديم مشيد فوق ربوة مرتفعة ، يطل على الدانوب . أما تاريخه فيعود الى خمسمائة عام ، شاده الملك ماتياس وأعادت تجميله الملكة مارى تيريزا فى القرن الثامن عشر ، وأضافت إليه بعض الأجنحة والمرافق . وللوصول إلى القصر طريقان : إما بواسطة الترام

الصاعد « فنكلير » أو سيراً على الأقدام بين حدائق غناء وأزهار نسقت أجمل تنسيق . وقد ظل القصر مقر ملوك المجر خلال القرون الغابرة الى أن طردت معاهدة الصلح آل هابسبورج وأقامت مكانهم الادميرال هورثى — الملقب بنلسون المجرى — كوصى للعرش ، الى أن يأتى « الملك المنتظر » فيعيد الى القصر غابر مجده وسؤدده .

وقد قص علينا صديق كان يرافقنا فى هذه الزيارة ، أن القصر كان فى وقت ما مسرحاً لمهزلة سياسية ، فقد انتهزت امرأة مأفونة اسمها روزى بيدى شويمر فرصة مغادرة آل هابسبورج للقصر ، فاحتلته مع فريق من أعضاء حزبها ، وأعلنت منه قيام الدولة الشيوعية ، لولا أن الحلفاء ثبطوا عزيمتها واعتقلوها . ولكن قصر الهابسبورج على الرغم من النكبات والكوارث التى حلت به محتفظ بطابع مجده القديم . ولا تزال فرقة الحرس الملكى تتهادى فى جوانب ساحته ، وصوت النفير يدوى بين ساعة وأخرى مؤذناً بتبديل الحرس ، كأن الملك مقيم فيه كسابق عهده .

وفى فناء القصر الداخلى عشرات التماثيل البرنزية فى حجمها الطبيعى ، بعضها يمثل الملك ماتياس بين كلاب صيده ، وحوله فتاة جميلة تحمل غزالا ، وحارس فى يده بوق يضرب فيه ، وحارس آخر يحمل فى يده صقراً . فقد كان الملوك في العصور القديمة يدربون الصقور ويروضونها على الصيد ، كما أن فى اعتقادات

العرب مايدل على أن الصقر يحمى حامله من الموت ، ويهيء له الانتصار على خصمه .

يضم قصر الهابسبورج نحو ثمانمائة وستين غرفة ، وأين القلم الذى يحيط بوصفها من قاعة الرقص المزينة بثريات تحيل الليل نهاراً ، إلى بهو الحفلات المكسوة جدرانه بالمرمر المجزع والفضة المنقوشة ، إلى قاعة العرش التى أعلن منها فرنسواجوزيف ضم البوسنة والهرسك الى بلاد المجر . ومن بهو استقبال السفراء المطل على الدانوب ، الى مقر أسرار الملكات ، حيث المخادع غارقة بين خزائن العطر ، وبين المزينات المرصعة بالجواهر والمناضد المطلاة بالميناء ، وأثواب التتويج التى طرزتها ووشت أطرافها بنات الأشراف وسيدات الطبقة الراقية .

. . .

غادرنا قصر الهابسبورج فى نزهة قصيرة حول أطراف بودابست ، فكان من المناظر الفريدة التى جذبت أنظارنا ونحن نجتاز الشوارع وفرة التماثيل . فليس من شك فى أن عددها يربو بكثير عنه فى أية عاصمة من العواصم الكبرى . وهم يتركونها دائماً صدئة مغبرة ، ولا يعمدون إلى تنظيفها أو طلائها إبقاء على طابع الزمن . هذه التماثيل بعضها يشخص الى الدانوب من ارتفاع شاهق كتمثال القديس جيليرت ، أول المبشرين الذين عملوا على نشر المسيحية في القرن العاشر ، وبيده الصليب يبارك به المدينة. وتمثال باتيوتى الكبير الذى يضارع تمثال الحرية فى نيويورك .

وتمثال الفارس تشيكوش ، فى حدائق القصر الملكى . وتمثاله يوجين سافوى قائد الفرقة الأجنبية التى ساعدت المجر على التخلص من الأتراك . وفى شارع كوشوت تمثالان كبيران ، ارتفاع كل منهما نحو عشرة أمتار أحدهما للقديس بازمان ، والثانى للمشرع فاربتسى . فاذا انحدرت من شارع أندرياتشى الى دار المتحف الزراعى ، عن طريق ميدان ميلنزى — أو كما يطلقون عليه : « ميدان الأبطال » — تبدى أمامك مشهد يأخذ باللب والفؤاد معاً . ففى هذه الساحة عمود تذكارى لمرور الف عام على تأسيس الدولة المجرية . يصاقبه نصب عظيم للبرنس الباته ممتطياً صهوة جواده ، يحف به نحو عشرين تمثالا من البرنز ، لملوك المجر الذين اشتهروا ببسالتهم الحربية . وهى فى حجمها الطبيعى آية ناطقة من آيات الفن الجميل . الى جانبها مقبرة الجندي المجهول ورسوم بارزة لأشهر الحوادث التاريخية . هذه النصب والتماثيل هى عنوان حضارة نبيلة شريفة . وما من مجرى يمر بها إلا حياها برفع القبعة ، متطلعاً إليها بالفكر والعاطفة . وهم يحرصون على تلقين تاريخ هؤلاء الملوك والأبطال لأولادهم ، ليطبعوا في نفوسهم مجد الوطن ، ويحببوا اليهم الكفاح فى سبيل الحرية والذود عنها .

فى هذا الميدان تقوم دار المتحف الوطنى للفنون الجميلة . وهى تضم بين جوانبها مجموعة فنية نادرة المثال ، ونفائس كانت تزدان بها قصور الملوك والأمراء . ففيها لوحات من رسم

روفائيل وليوناردى‌فنشى ، وطائفة من رجال الفن فى عصر النهضة،ومناظر طبيعية بريشة الرسام الفرنسى النابه كلود لورين ، والفنان الاسبانى جويا ، فيها جمال يطرب النفس ويتسامى بها الى نشوة الخيـال . وفى الطابق الأول من المتحف تماثيل مختلفة الأحجام والاشـكال ، تشهد بأن فن النحت بلغ شأواً بعيداً فى التناسق والانسجام،وفى التعبير عن جمال الروح وجمال الجسد .

ماهذه العبقريات والقرائح التى جادت بهذا الفن العجيب ؟ بل بهذه الثقافة الشرقية النبيلة التى تقدمها المجر لأوربا ؟ ثلاث ساعات قضيتها فى هذا المتحف ، متنقلا من لوحة الى لوحة ومن تصوير الى تصوير دون أن أحس باجهاد أو تعب . وهل كانت زيارتى لمتحف الفنون الجميلة سوى سياحة فى عالم الفكر وفى عالم الخيال ، تطفىء ظمأ الروح والنفس ؟ وأين لي من الفاظ الفن والمعمار والهندسة ماأعطى به القارىء صورة صحيحة لكل ماشاهدته من رسوم ونقوش وتماثيل . على أنى اكتفى بأن أقول ان الروح الشرقية الهادئة متأصلة فى كل مالمحته : فالمجريون الذين قدموا الى أوربا من الف عام ونيف ، حملوا معهم من الشرق الفن الزخرفى الفارسى الذى لاتزال روحه قوية الأثر فى القرى والدساكر . ثم أخذ الفن يتطور بتطور الحياة ، جانحاً الى استيحاء النهضة الايطالية والفن اللومباردى ، وان كان لم ينقله مجرد نقل ، بل ظل محتفظاً بمزاجه الشرقى ، وحور من الفن الاوربى ما يوائم تقاليده وبيئته الاجتماعية .

ولقد سار الفن المجرى خطوة فخطوة مع الامة ، مرتفعاً بارتفاعها ، هابطاً بهبوطها ، فبكت ريشة الرسام لبكاء الشعب ، واضمحلت عبقريته فى عصور الانصراف الى الحروب والقلاقل السياسية ، حتى اقتصر الفن على تزيين حوائط الكنائس ونقش الصلبان والاوانى المقدسة .

ولما كانت الفنون أول ظاهرة من ظواهر المجتمع ، بل إنها المقياس الصحيح للحرية الفردية والجماعية ، فان المجر ما كادت تسترد استقلالها وتسودها عصور كلها رخاء ورفاهية وتعلق بأسباب الحياة ، حتى أشرقت الروح التي هجعت أجيالا طويلة ، وبرزت الى الوجود العبقرية الكامنة . وكانت عودتها الى الحياة بمثابة انتصار هادىء للشرقية على الغربية . فازدهرت النهضة الفنية ، وسرعان ما انتقلت من الكنائس الى القصور . وانجبت المجر طائفة ممتازة من رجال الفنون ، بثوا روحهم فى ايجاد فن قومى أصيل ينبت فى تربة مجرية فنية . كالرسام مرستونى الذى أسس بمدينه بست أول اكاديمية للفنون الجميلة ، وميشيل مونكا كزى ، وهو يعد في مقدمة الرسامين الذين ذاع صيتهم في انحاء العالم ، وجان كوبتسكى ، وقد اشتهر بعبقريته الفذة ، وفى لوحاته الجميلة نرى خيال الفنان وذوقه وعمق بصيرته .

الي جانب هذه الاعمال الخالدة نرى فى أورقة المتحف ، أعمالا أخري منوعة ، لطائفة من المهندسين المعماريين ، كنقولا يبل الذى شيد أوبرا بودابست ، وأدمون لخنر واضع رسوم

متحف الفنون الزخرفية ، ويرجع اليه الفضل في تكوين الفن المجرى الحديث ، الذي يجمع بين الفن الشعبي وبعض عناصر الفن الشرقي ، وريرخ صاحب تصميم جامعة سزجد ، وبرتليمي سزيكيلي مبتدع فن الرسم التاريخي .

والمشاهد انه فى العصور التى كان الفنان الاوربى يستلهم الفن الاغريقى فى تكوين ملكته الفنية ، نرى الفنان المجرى ينفر من الطابع التقليدى ، فيعبر برسومه عن مجد أجداده القديم الخالد ، ويأخذ عن الروح المجرية المرحة من كل معنى طرب ، حتى جاءت لوحاته الملونة بالأصباغ والزيت خير معبر عن حقيقة شعوره ، وعن تكوين الذوق الشرقى فى فنه

∴

نغادر متحف الفنون الجميلة فما أن نعبر قنطرة صغيرة على الدانوب حتى نلفى أنفسنا وجها لوجه أمام دار المتحف الزراعي ، وهى عمارة جمعت بين الفن المجرى الالمانى والرومانى وبين فن النهضة الايطالية . فواجهة المتحف منقولة عن قصر هنديادى ، فى حين أن الباب الجانبى على طراز مدخل قصر من قصور عهد الاقطاع. أما الباب الخلفى فهو عبارة عن فجوة فى حائط ضخم من الطراز الفني الالمانى . وبالاجمال فان هذا البناء الفريد يجمع بين مختلف فنون العمارة ، حتى جاء آية من آيات الجمال .

وفى حديقة الدار أقيم تمثالان ، أحدهما لجورج واشنطون محرر الولايات المتحدة ، والآخر لمؤرخ مجهول دون فى القرون

الوسطى تاريخ المجر دون أن يضع اسمه على مؤلفاته ، وقد خلده المثال بعد أن تخيل ملامحه وهيئته من روح كتابته .

والمتحف الزراعي ببودابست يعد أعظم متحف زراعى في العالم ، وداره كائنة فى جزيرة صغيرة تكتنفها الأشجار والغدران ، مما يزيدها روعة وجلالا .

ويمثل المتحف مظاهر الحياة الزراعية فى المجر بطريقة عملية ومنطقية دقيقة . يكفى ان تتفقد ما يحويه من الآلات الزراعية والمنتجات والمواشى ، حتى تخرج منه بفكرة صحيحة عن الزراعة في المجر وتفنن المجريين فى وسائل ترقيتها .

والمتحف مقسم الى خمسة وعشرين قسماً بطريقة تحليلية دقيقة . وأهم هذه الاقسام : الاحصاء الزراعى ، والجيولوجيا الزراعية حيث توجد مجموعات من مختلف أنواع التربة ، وقاعات القمح وهي تشمل الحبوب التى كانت تزرع فى العصور السابقة للتاريخ ، وقاعات تربية النباتات حيث توجد مجموعات من الجذور ، وقاعة زراعة الدخان ، وزراعة البساتين ، وقسم أمراض النباتات والحيوانات ، حيث توجد مشاهد لأثر تلك الامراض وتطوراتها ، وقاعة تربية القز وزراعة العنب ، ومجموعة منظمة للطيور المفيدة للزراعة وطرق وقايتها ، وبيانات عن أعمال محطات التجارب الزراعية ، وأخرى عن تطور الصناعات الزراعية كصناعة طحن الغلال ، وتكرير السكر ، وتقطير الكحول ، والجعة ، وزراعة التيل والكتان ، وبيانات عن جمعيات التعاون والنقابات الزراعية ،

وأقسام خاصة بتاريخ الزراعة منذ طفولتها، وعلم الارصاد الجوية، وعلم الاجناس البشرية . وهناك أيضاً قسم للألبان وآخر للأنبذة حيث يستطيع الزائر ان يتذوق أقدمها وأشهاها . ويوجد بالمتحف أقسام لتربية أحسن أنواع الجياد وبيان فضائلها . أما قسم الري فهو يشير الى الطرق التي اتبعت منذ قديم الازمنة الى الآن لري الاراضي الزراعية . عدا أقسام تربية النحل واستخراج العسل ونسج الاقمشة الحريرية والدخان والتفريخ والفواكه المجففة ورعاية الغابات وفيها بيانات مستفيضة عن الجهود التي بذلتها الحكومة في سبيل زراعة الغابات في المناطق القلوية والحجرية وعلى شواطىء البحار . ويشمل قسم تربية الاسماك مجموعة كاملة بما فيها الانواع المنقرضة، وقسم الطيور وفيه أنواع كثيرة من الطيور النافعة للزراعة ومجموعات لاسلحة الصيد . ومن الغرائب في قسم الخضر والفواكه، بطيخه محفوظه من سنه ١٩٠٥ . أما مكتبه المتحف فهي مكونة من نحو أربعة وعشرين الف مجلد خاصة بالشؤون الزراعية .

وتملك بودابست عشرات المتاحف، تفقدنا بعضها في فترات متفاوتة، وهي ذات فوائد عملية أكثرمنها علمية. وأخص بالذكر منها : المتحف الحربي ويقوم إلى جانبه قبر القائد العثماني عبدالرحمن عبدي باشا الذى استشهدعام ١٦٨٦ فى احدى المعارك الحربية، وقدحفر فوق شاهد القبر اسمه والقابه ورتبته في الجيش بالخط العربي الجميل . ومتحف وصف الشعوب، وفيه فكرة واضحة عن حياة

الشعب المجرى فى القرى حيث الأثاث المزخرف والملابس ذات الألوان المفرحة والصناعات اليدوية . ومتحف الشرق الأقصى ، جمع طرائفه فرنسوا هوب خلال سياحاته العديدة حول الكرة الأرضية ، ثم أهداها قبيل وفاته الى الدولة ، والمتحف مكون من قطع برنزيه ، وخزف ، وخشب مدهونة ، وأوان ، وصور ، وصناديق أثرية من الصين واليابان وبلاد الشرق الأقصى . ومتحف الفنون الزخرفية ، وهو يمتاز عن غيره من المتاحف المجرية بصبغته القومية البحتة ، فلا يشمل أية تحفة أو طرفة من صناعة أجنبية ، بل كل مافيه من الأواني الخزفية والقيشاني والفخار والأقمشة الموشاة بالذهب والمطرزة باليد والكتب المجلدة تجليدا أنيقا وقطع الأثاث الفنية ، ليس إلا من صنع المجر .

وهنالك متاحف خاصة أكثر منها عامة ، كمتحف جورج راث رئيس محكمة النقض ببودابست ، ويحوى خمسين لوحة زيتية من رسم كبار الفنانين العالميين . ومتحف هواة طوابع البريد وهو مؤسس على طريقة متحف نورمبرج ويشمل مجموعة مكونة من خمسة وأربعين الف طابع . ومتحف الملكة اليصابات . ومتحف الموسيقى . ومتحف النقل . والمتحف الصحى . والمتحف الاجرامى والبوليسي ويشرف على هذه المتاحف جميعاً مجلس أعلى برياسة وزير المعارف والاديان ، يعاونه مدير دار المحفوظات ومدير المتحف الوطنى .

أما المتحف الوطنى الذى قضينا فى زيارته اكثر من أربع ساعات فهو من أغنى متاحف العالم ، ويمتاز عن غيره بانه مؤسس

بأموال الشعب لا من مال الدولة أو أحد الافراد . أسس عام ١٨٠٢ ويرجع الفضل فى تقدمه الى الجهود الفذة التى بذلها الكونت فرنسو اسزخني ، والى اهتمام الشعب ومعاونة الحكومة. فقد صدر قانونان ، أحدهما فى عام ١٨٠٧ بفرض ضريبة طفيفة لتأسيس المتحف ، والآخر في عام ١٨٠٨ بفتتح اكتتاب وطنى عام لسد نفقات بناء دار المتحف . وهو يتكون الآن من : المكتبة التى تحتفظ بوثائق ومحطوطات ترجع الى عام ١١٠٩ ، ومحفوظات خاصة بمائة وعشرين أسرة من الأسر المجرية القديمة، وعشر رسائل من عهد الملك ماتياس كورفان ، والنسخة الخطية للمنشور الذى أصدره نابليون بونابرت الي الشعب المجرى ، وخطاب لوثر الى الدوق جان دى ساكس . وعلى درج المتحف تمثال أسكندر بتوفى الشاعر والكاتب المجرى المترجمة أشعاره الى جميع اللغات الحية ، وقد وقف يصرخ صرخته الأولى في سبيل الحرية حتى اندلع لهيب الثورة فى أنحاء البلاد.

وفى قسم الآثار مجموعات كاملة من الأسلحة والفخار التى يعود تاريخها إلى العصر الحجرى الأول ، وهى جديرة حقاً بالاعجاب لتناسق أشكالها ، وقد عثر عليها فى الكهوف والمغاور والمحاجر وفى بعض المناطق على سطح الارض . وتكاد الآثار فى هذا القسم ترشدنا الى أن عصر الانتقال من العهد الحجرى الى العهد النحاسي والبرنزى كان عصراً مزدهراً بفضل سهولة

المواصلات ، وعلى وجود صناع متجولين كانوا يجوبون أنحاء أوربا ، ومعهم أدواتهم المعدنية .

ويستخلص من قسم الابحاث التاريخية بمتحف بودابست الوطنى أن حضارة أوربا الشمالية لم تكن تختلف كثيراً عن حضارة الشعوب الروسية والاسيوية ـ أى شعوب الرعاة ـ كما يشهد بذلك وجود حيوانات برية صغيرة ـ مثل الآيل ـ مصنوعة من البرنز أو من الذهب . ونلمس بوضوح أثر الحضارة الثينية فى التماثيل الذهبية للأسود ، ونلمس كذلك آثار الشعوب الاسيوية التى غزت المجر ، من وجود أخواص وغصون النخيل ، وآثار الحضارة الاغريقية من وجود مناظر وحوادث مقتبسة عن الأساطير أو منقولة عن التوراة . وهنالك فرع خاص بتاريخ الشعب المجرى وحضارته منذ نشأته الى اليوم ، فهو من هذه الناحية يحتفظ بتراث البلاد القومى .

وأكثر التحف المحفوظة فى هذا القسم ، قطع فنية دقيقة ، من المعادن الثمينة والمنقوشة نقشاً بديعا . وبديهى أن هذه الكنوز الغالية نجت من أيدى العابثين ، نظراً لصغر حجمها ، فأصبحت تمثل الحلقات المفقودة بين مختلف العصور التى اندثرت آثارها المشيدة . والى جانب الأوانى الكنائسية الفضية والذهبية ، نرى أقمشة موشاة بالذهب ، وهى آية فى فن التطريز ، ذلك الفن الذى ازدهر وتقدم بفضل اهتمام رجال الدين الذين كانوا يتخذون تلك الأقمشة فى حياكة الملابس الكهنوتية .

ويعد متحف بودابست الوطنى من أغنى متاحف العالم فى مجموعات الحيوان والنبات ، ويرجع ذلك الى موقع بلاد المجر الجغرافى ، ذلك الموقع الذى جعلها تجمع بين مميزات الشعوب الشمالية والغربية والشرقية ، بل والجنوبية ، نظراً لقربها من البلقان. أضف الى ذلك انها تجمع فى أراضيها عدة صفات متباينة ، فهذه أرض قلوية ، وتلك رملية صحراوية ، والأخرى ملحة بحرية مما يساعد على نمو النباتات والحيوانات المختلفة الأشكال ، كل منها فى المناطق الملائمة للطبيعة .

ويشمل قسم الحيوان مجموعات قيمة من الحيوانات الثديية والبرية القديمة كالقرود والفهود والوعول التى اندثرت ولم يبق لها أثر الا فى أواسط افريقيا ، وحيوانات صغيرة كالضفادع ، وحيوانات قشرية وصدفية ومجموعات كاملة من الديدان المختلفة الاشكال ، وبعض أنواع الذباب كالفراش الملون والناموس وما عاثلها . أما مجموعات بقايا الحيوانات التى يرجع عهدها الي ما قبل التاريخ والتى وجدت فى الحفائر ، فيبلغ عدد مفرداتها ١٠٠٠٠٠ر١ أكثرها مهداة من العلماء وهواة البحث والتنقيب. ومكتبة الحيوان من أنفس المكتبات العلمية إذ يبلغ عدد المجلدات المحفوظة فيها ثلاثين الف مجلد ، وهى مرجع مفيد لكل باحث ومطلع .

ويبلغ عدد النباتات المحفوظة في الزجاج بمتحف بودابست الوطنى نحو خمس وعشرين الف مجموعة من أندر المفردات وأعظمها قيمة من

الوجهة التاريخية . وبها مكتبه مكونة من خمسة عشر الف مجلد من علمية وارشادية ، بعضها يرجع الى مئات السنين .

. . .

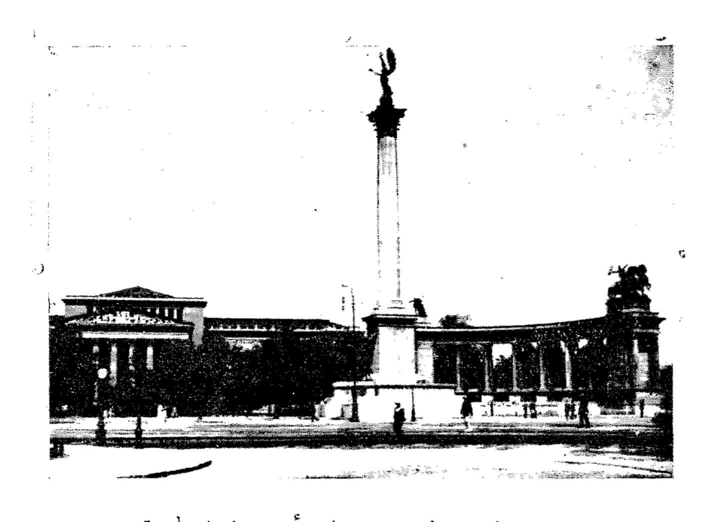
ومن الأماكن التاريخية القديمة التى زرناها ببودابست البقعة السماة «فزى» ، وهى التى اجتازها الهنجاريون لألف عام خلت عنددخولهم بلاد المجر . والكنيسة السربية ، وتمثال الثالوث المقدس وهو تمثال ضخم قائم أمام الكنيسة الكبرى ، ودار البلدية ، وقد كانت فيما مضى ملجأ للجنود المشوهين والعجزة . وفى الجامعة بناء أشبه بمغارة منه بكنيسة ، وهى تمتاز بجمال مقاعدها وأرغنها وهيكلها الرئيسى ، وحوائط مكتبتها المنقوشة برسوم جميلة ، من صنع فنانين من القسس اليسوعيين « الجزويت ». أما « كنيسة التتويج » الكبرى فكانت تجرى فيها مراسم التتويج للملوك الجدد بعد أن يقسموا فى الهيكل يمين الدستور ، وأنت تبهر ولاشك بفخامة هذه الكنيسة ودقة نقوشها وهيبة العمد ، والحنايا التى يلتقى فيها الفن الشرقى بالفن القوطى . على أنك لاتلبث أن تشعر أنها كانت مسجداً . فكل ماحولك من النقوش والآيات القرآنية التى حاولوا طمس معالمها ومكان مرافق الوضوء وقبلة الصلاة تنادى بأن الكنيسة ظلت زهاء قرنين مسجداً رسمياً إبان حكم الأتراك .

وفى كنيسة التتويج تمثال بديع الصنع للسيدة العذراء،وهى تحمل السيد المسيح ، فلما دخل الأتراك بوادبست خشى رجال

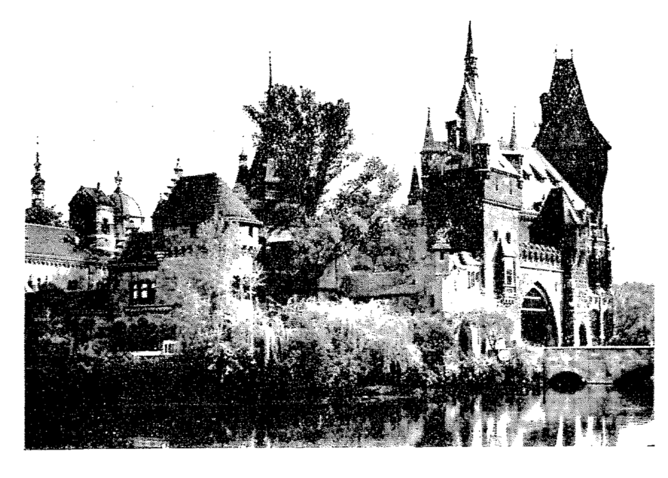
الكنيسة أن يحطموا التمثال فأودعوه إحدى الزوايا وأقاموا على المخبأ جداراً يحجبه عن الأنظار ، حتى اذا نزح الأتراك عن المجر وعادت الكنيسة سيرتها الأولى هدموا الجدار وظهر التمثال سليما كما حفظ منذ مائتى سنة .

وقص علينا الدليل قصة لا بأس من ايرادها ، فمن المراسيم التى كانت متبعة أنه عقب حفلة التتويج يغادر الملك الجديد الكنيسة فوق صهوة جواده ويسير صوب تل صناعى يجلب ترابه من أراضى جميع المقاطعات المجرية . ويرتدى الملك فى هذه الحفلة مسوح القديس استيفن ، وهذه المسوح يرجع تاريخها إلى الف عام ، ويضع تاجه على رأسه وفى يده حسامه ، فاذا صعد بجواده الى التل انتضى سلاحه ليطعن به فى الفضاء الجهات الأربع ، مشيراً بذلك الى أنه يدفع الاعداء بسيفه اذا ما حاولوا مهاجمة البلاد من جهاتها الأربع . ومن الغريب أن الملك شارل آخر ملوك المجر ، الملقب بالأحمق ، اعتلى صهوة جواده بعد مراسيم حفلة التتويج قاصداً صوب التل ، فحدث أن ارتجف الحصان من دوى هتاف الشعب . وكان التاج ثقيلا متسعاً على رأس الملك الصغير فاهتز مرات ، وكاد يقع من جراء رجفة الجواد . وتشاءم الشعب من هذه الحادثة ، وعدها نذير سوء . فكان شارل آخر ملك تولى حكم المجر ، الى أن مات منفياً عقب الحرب العظمى فى ماديرا بأسبانيا .

ويواجه كنيسة التتويج نصب تذكاري ضخم لسان استيفن ، وهو أول ملك من أسرة أربادا الحاكمة اعتنق المسيحية ، وأكره الشعب على قبولها ، حتى قامت حروب بينه وبين الشعب انتهت بانتصاره ، وهم يروون عنه قصصاً عجيبة . وينسبون إليه من الكرامات ما ينسب عادة للأولياء والقديسين .



النصب التذكارى لمرور الف عام لتأسيس الدولة المجرية



دار المتحف الزراعى



فلاحة مجرية فى ملابسها الوطنية



مأذنة فى مدينة إجر

ملكة الدانوب

لبودابست في الليل طابع خاص جذاب يشيع في جوها عذوبة كلها شباب متجدد وأمل ضاحك ، ويهيج في سمائها ماتنطوى عليه من سحر وجمال تسكبه فى نفوسنا . هذا الطابع يتمثل عادة فى ملاهى سانت مرجريت وفى الجبال الصغيرة التى يرتادها أهل بودابست للنزهة ، وفى المطاعم المكتظة بموسيقى النور والمقاهى المتناثرة على ضفتى الدانوب ، مما يجعلها من المناظر الخيالية الساحرة التى لا تمحى من الذاكرة . فالسائح الذى يصلها ليلا ، يشهد منظراً خلاباً ، هى سلسلة قمم من الأنوار المتلألئة التى تبهر اللب والفؤاد. فمن مشهد القصر الملكي الغارق بين الحدائق الغناء والأزهار المتضوعة بالشذى ، الى القلعة وهى تريق أنوارها على مايحوطها من التلال ، الى أبراج الفنادق والقصور وقد انتظمت كعقود ساطعة من الضوء ، الى مشهد ألوف النجوم اللامعة التى ترقص ظلالها على صفحة الدانوب .

هذا الدانوب لا يكفيه أن يغمر بودابست بسحره وأنواره ، وبالزوارق تخطر على صفحته، وبالأمواج تتهادى فى طمأنينة وليونة ، بل تراه يعطيها فلذة كبده « سانت مرجريت » . فهى جزيرة

صغيرة لو تركت وشأنها لما كانت لها أهمية تذكر ، ولكن تهافت القوم على تجميلها وحرصهم على أن تكون مصدر وحي وإلهام للعشاق والشعراء والفنانين ، وطلاب المسرات ، جعلها بمثابة القلب الذى يوزع ألوان الحياة ويجمع أساليب المتاع بأسباب الصحة والعافية . بل أنها مقام الرئة من القلب إذا ما بدأت بودابست تتنفس من كد النهار وأوصابه لتستقبل حياة الليل المرحة الطروب.

تقع سانت مرجريت بين بودا وبست . وكانت تعرف قبلا باسم « جزيرة الأرانب » فلما شبت الحروب الصليبية اتخذتها البرنسيس مرجريت ابنة بيلا الرابع مأوي للتنسك والعبادة ، وشيدت بها ديرا لا تزال أطلاله قائمة . ثم انقطعت فى داخل الدير للتقشف زهاء عشرين عاماً حتى أضحت رمزاً للتطويب . وظلت الجزيرة من أملاك أسرة هابسبورج الخاصة الى أن ابتاعتها بلدية بودابست من الأمبراطور فرنسوا جوزيف لاستغلال ينابيعها الكبريتية . وهى تشمل اليوم أمكنة منوعة للرياضة والتنس والبولو والسباحة وسباق الزوارق وصيد الحمام ، وتقوم فى أطرافها مصحة وفندق ومرقص ، وبها ـ في الوقت نفسه ـ جنة للأطفال . فالمرضى يستفيدون من مياهها الطبيعية ، والأصحاء ينعمون بمسرات الحياة فى مطاعمها وملاعبها .

وقد أصبحت « سانت مرجريت » بحق « لؤلؤة الدانوب » وكعبة يؤمها العشاق ، حيث تظل أبوابها مفتوحة طول الليل ، فيصلون مساءهم بصباحهم فوق الحشيش الأخضر وفى داخل

الخمائل ، وعلى المقـاعد الخشبية الطويلة المختفية تحت الأشجار الباسقة . والواقع أن «سانت مرجريت» هى المكان المختار لخلوة المحبين ، فان القمر الذى يرسل أشعته الوضاءة على ما فى الجزيرة من أطلال قديمة وزهور مكتملة النماء ، يختفى أحياناً عن عمـد وراء السحب، حتى لا يعكر صفو أحلام الشباب .

على انك تلتمس هذه الحياة الليلية المتفجرة بينابيع كلهـا استمتاع بالمسرات وانهماك فى الملذات ، فى غير الدانوب وسانت مرجريت . فهنالك المراقص ودور العزف وأندية السباحة والحمامات الشرقية المشيدة منذ عهد الأتراك ، المنقوش على أبوابها فى صراحة : « تدخل هنا شيخاً وتخرج شاباً ! »

هذه الحمامات تعـد بالعشرات ، وهى جميعاً مجهزة بالميـاه والينابيع الـكبريتية . كحمام «جليبرت» القائم بالقرب من جسر فرنسوا جوزيف ، فهو طرفة من عجائب بودابست . يقع على ضفة الدانوب ، في سفح تل يتفجر منـه ثلاثة عشر ينبوعا محملة بأملاح الجير والكربون والكبريت ومواد فعالة للبرء من شتى العلل والأمراض .

وجليبرت أيضاً اسم لفندق شهير ، كانت عمارته في الأصل كتدرائية تعرف « بسان متيوس » ولا يزال فى مدخل البنـاء تمثال ضخم للمبشر جليبرت حامى المدينة، وعلى الجدر أثر الصلبان والنقوش الدينية ، وقد حدث أن حولت الكنيسة إلى مسجد فالى فندق يتحدثون الآن عن مظاهر الترف واختلاف أسباب اللهو

فيه ، بعد أن كانوا يستجدون على أبوابه أسرار الصالحين والقديسين !

على أن جمال الفندق وهيبة عمارته ، وما يبعثه فى النفس من شعور كله غبطة وتفاؤل باستكمال الصحة والعافية ، لا يعد شيئاً إلى جانب الحديقة العظيمة الملحقة به ، وحوض السباحة الذي يزينها ، وما تشتمل عليه هذه الحديقة من ورود وأصص أزهار صفت بينها أرائك ومقاعد ونافورات ، وجو يمتزج فيه أريج الزهر بعبير أنفاس العاشقين .

وحوض السباحة الذى يتوسط الحديقة منسق على طراز الليدو بباريس ، بل قد يمتازعنه بالأمواج الصناعية، وهومصنوع من الرخام الناصع ، والمياه تتدفق اليه من فمى تمثالين كبيرى الحجم بهيئة وحوش ضارية. ويالجمال الحوض عندما يضاء بالأنوار الكهربائية ! هنالك تلفيه وقد امتلأ على سعته بالحور والولدان فكأنهم أتباع نوح ، همت بهم الفلك واحتواهم الماء !

وحول أفاريز الحوض موائد أعدت لتناول الشاى أو العشاء على نغمات الموسيقى ! جلس اليها بعض الرجال وقد انتحوا مكاناً لبناتهم اللواتى كن يسبحن في ضوء النجوم . أية فتنة وأى بهر وذهول ! ماهاته الحور يسبحن تحت خمار القمر المفضض ، وقد شعت من جوانب «البسين» أنوار الكهرباء ممتزجة باضواء القمر والنجوم ، فبدت أجسامهن البضة كالزئبق الرجراج فى كف الكيمائى الماهر ، وظهرت صفحة الماء كالزجاجة تتراءى فيها الجسوم

كما تتراءى دمى الشمع عارية،يوشك المثال أن يفرغ من صقلها !

وقد اتفق فى فترةزيارتنا لبودابست ،ان جرت طقوس العيد القومى للقديس استيفان ، فالمتاجر والحوانيت مغلقة بعد أن أبقت واجهاتها الزجاجية مكشوفة لتطالع الناس بأحـدث الاذواق والمبتكرات . والشوارع غاصـة بالقرويات اللواتى يعرضن ملابسهن المزركشة بالألوان الزاهية ، المطرزة بالحرير الموشى بمختلف الألوان .

ولا غرو إذا ذكرت ان المجر تشـهد فى أسبوع القـديس استيفان مظاهر بالغة من السمو أى مبلغ . فبودابست كلها تحتفل فى الأسبوع الأخيرمن شهر أغسطس بأقامة الذكرى السنوية للملك الهنجاري الأول الذى دفع شـعبه الى اعتناق المسيحية ، وحوله من طبيعته الشرقية الى خدمة الحضارة الغربية . وفى هذا العيـد تجتمع عظمة الشرق وأبهته إلي بهجة الغرب وفتنته بحيث تندمج الحقائق اندماجا كليا فى عالم كله أحلام . ويبدو موسم القديس استيفان في أجلى مظاهره فى اليوم العشرين من أغسطس فيخرج الموكب الدينى الباهر من الكنيسة الكبرى يحفه الجلال والوقار . ويسير فيه نخبة المجريين ، مظهرين نبل شعورهم نحو الملك القديس ، متبركين بالأثر المقدس الذى خلفه ، وهو جزء محنط من يده، مودع فى وعاء زجاجى ، مزخرف بالنقوش الذهبية ؛ وهذا الوعاء يحفظ عادة فى المعبد الصغير القائم فى ساحة القصر الملكى ، ويتولى حراسته فريق من الأشراف ، فلا يخرج من موضعه

إلا فى هذا العيد المقدس حيث يطوفون به نواحي بودابست .

وتجرى حفلات القديس استيفان طول اليوم . ففى الصباح يسير الموكب الرسمى يتقدمه نائب الملك والرؤساء الروحانيون ورجال العسكرية والأعيان بملابسهن المرصعة بالجواهر الكريمة وجموع القرويين فى ثيابهم القومية الملونة . على حين تعزف الموسيقات فى الحدائق العامة والميادين. وتبدأ الحفلات الرياضية بعد الظهر فيتبارون فى السباحة والفروسية وسباق الجياد لاحراز كأس الملك .

أما فى الليل ، فترى المواكب الزاخرة فى الدانوب ، حيث القوارب مزينة بأبدع الأزهار ، وسرعان ما تتحول صفحات النهر إلى ميدان رحب لسباق الزوارق. ويهرع القوم إلى الضواحى كجدولو وفيزجراد واسترجوم لينسوا أنفسهم بين اللهو والمسرات، ويمتعوا أبصارهم بجمال الطبيعة .

ومن مظاهر موسم القديس استيفان أيضاً تقاطر القرويين على الانجول بارك ، وهي بقعة مكتظة بالمسارح الشعبية واللونا برك والأسواق التى تعرض المصنوعات اليدوية والمأكولات، وموسيقى النور . وتقام لهؤلاء القرويين حفلة أنيقة بحديقة فاروس حيث تطلق الألعاب النارية فى الهواء ، وتجري مسابقة استعراض للازياء القروية ، تعرف باسم « الباقة اللؤلؤية »، وهي عبارة عن حزمة من الأزهار الزكيــة تجمع من برارى هنغاريا لتمنح إلى الفائز الأول .

والعيد جانب يمثل الثقافة العامة للشعب في سوق كبيرة تقام للكتب والمطبوعات ، فتعرض فيها ثمار القرائح ، ومبلغ ماوصل اليه فن الطباعة من الأناقة والاتقان .

كانت السوق غاصة بمئات الادباء والقراء وهواة جميع الامضاءات ،وكان بها نحو مائتي خيمة ، عرضت فى كل منها أشهر المؤلفات القديمة والحديثة، كنسخة من الطبعة الأولي لكتاب « مأساة إنسان » تأليف الشاعر إمرماداش ،وهى التى اتهم مؤلفها بانه اقتبسها عن المأساة الالمانية «فاوست» لجيته . وعرضت كذلك طبعات أنيقة لطائفة من كتاب الادب الحديث ، كامريك باركس والكاتب الترانسلفانى زيكلى مؤلف روايتى « حياة كلب » و «الثلاثاء» .ومجموعة خطية من أشعار يتوفر . ومؤلفات جولان بيكار صاحب« الأشرطة الدامية » والشاعرة أوجين هلتاي .

...

أما الناحية التى أثارت فينا عاطفة الاعجاب فى الحياة الليلية ببودابست ،فهى رقى أنواع الموسيقى المجرية . فليس من شك فى أن تقدمها عظيم فى هـذه البلاد ، وبالأخص موسيقى الآلات الوترية والغناء الشعبى . فالموسيقى الشعبية محصورة تقريباً فى قبائل النور المتجولة ، المكونة من عازفين ومغنين . والمعروف عن النور أنهم شعب موهوب من حيث الفن الموسيقى بحكم حبه للحرية وميله للحركة والتجول . وهـذا ماجعل النور أمناء على الموسيقى المجرية ، محافظين على تقاليدها . بل إنهم

أضافوا الأنغام الحديثة الى الموسيقى القديمة ونبغوا فى عزفها بآلاتهم الخاصة كالقانون ذى الخمسة الأوتار والكلارنيت والطبلة الصغيرة والكمان . وما من مطعم راق فى بودابست إلا ألفيته غاصاً بالموسيقيين النور ، يعزفون على طريقتهم لتسلية الجمهور .

وهنالك مسارح عدة قضينا بها أوقاتاً سعيدة ، وإن كنا لم نفقه لغة التمثيل . كمسرح الحصن ومسرح الروندلا ، وهما أقدم المسارح ببودابست . وتمثل فيهما أحياناً فرق متجولة قوامها الأوبرا الألمانية والايطالية . أما المسرح الوطني فتقام فيه عادة حفلات موسيقية باهرة ، وتعزف فيه مقطوعات عالمية لبيتهوفن وموزار وبوتشيني وفردى ، ومقطوعات لمؤلفين موسيقيين مجريين أمثال بارتى وتورن ودوبلر .

. . .

لم يكن فى برنامج إقامتنا ببودابست أن نزور الريف المجرى لأننا لانحيط بلغة أهله ، على انه بعد انتهاء حفلات القديس استيفان هدأت الحركة فى بودابست ، وشملها ركود أدى الى تفشى الملل فى نفوسنا . فأشار علينا صديق عرفناه فى الفندق بأن نقصد إلى بحيرة بلاتون إذ أنها جنة الألوف فى فصل الصيف ، حيث الرمل الحار، والماء المشبع بمادة الراديوم ، والمياه المتفجرة من الصخور البركانية ، والنسيم العليل الذى يهب فى المساء ، فتنبعث من همسه وسكونه فوق زبد البحيرة ، أطياف الماضى

الجميل المفعم بنشوة الأحلام وحلاوة الذكريات .

وبحيرة بلاتون ـ أو البحر المجرى ـ تبعد عن بودابست نحو ساعتين بالسكة الحديد أو بالسيارة ، فى طريق تحفه المزارع النضرة والأراضى الخصبة . وهى ذات مساحة واسعة ، تمتد شواطئها الى تسعين كيلو متراً ، وبها مرسى بديع للسفن وللزوارق . وإذا كنا نقترب من البحيرة لاحت لنا القرى وأمكنة الاصطياف منتشرة هنا وهناك على الشواطىء وفى سفوح التلول .

إن قمم الجبال الجرداء أو المكسوة بالثلج الأبيض ، قد تكون متشابهة فى جميع البلاد ، فليس فيها أى طابع إقليمى . أما البحيرات فتختلف عنها اختلافا بيناً ، إذ أنها تعكس نور السماء على سطحها . وتلك السموات تختلف أيضاً باختلاف الأجواء ، فالفرق بين بعض البحيرات الرومانية التى قضينا بها أوقاتاً هنيئة وبين بلاتون : أن سطح البحيرة فى رومانيا منوع الألوان ، هادىء الأمواج . أما فى بلاتون ، فترى الرمل الناعم كأنه المخمل، مما يذكرنا بشواطىء الاسكندرية . والقمم الصخرية التى بقيت من العصر البركانى متناثرة على الشواطىء وقد قامت فى سفحها الأغراس . وتلمح فى سطح البحيرة تلك اللوحة الفنية المعبرة عما يجيش بالنفس من ولع بكل صنوف الجمال ، يحوطها إطار جذاب من الشجيرات وألوان الشفق .

فى بلاتون ترى العائلات المجرية ، والشباب المفعم حيوية ،

يقضون الساعات الطوال على الشاطىء ، والسياح الذين يهوون الرياضة وسباق الزوارق . وترى الفيلات الأنيقة والبيوت الريفية المشيدة سقوفها من القرميد الأحمر ، وسلسلة من الفنادق والبنسيونات والمصحات والغرف المعـدة للايجار ، وشبه الجزيرة التى يرتادها المصطافون للتنزه .

وسيظل اسم بلاتون مقترناً فى عالم الأدب والفن بأسماء عشرات من الـكتاب والفنانين ، فعلى الرغم من أنها مثار وحى وإلهام لريش كثير من الرسامين الذين رسموها ساعة غروب الشمس فى أيام الصيف الجميلة ،أو فى أوقات غضب الطبيعة وهبوب العاصفة . فقد أتاها موريس جوكاي القصصى النابه ، ومن قبله المغنية العالمية لويز بلاها حين كانا يقيمان « ببلاتون فورت » حيث لقيا فيها الشفاء . وعلى سواحلها اسـتراح الشاعر البنغالى رابندرانات تاجور بعد التعب الذى حل به فى خلال سياحاته العديدة بأوربا ، حتى لقـد بلغ من نشوة رضاه أن خصها بقصائد طريفة من شعره .

إلى جانب بلاتون تقوم كنيسة تيهانى المشيدة لثمانية قرون خلت ، تتحدث بافتخار عن عصور المدنية القديمة حين كان العلم وقفاً على رجال الدين ، وكانت التقاليد الوراثية النبيلة والعاطفة القومية المشبوبة مما اختص العلماء والرهبان بغرس بذورها في الشبيبة .

والواقع أن بلاتون ليست مجرد مركز للاصطياف وجنـة

للأطفال ومحطة للأحياء المائية ، بل هى فوق ذلك بقعة بديعة لكل من يهوى الطعام الأنيق ، فان أنواع الأسماك فيها تنافس أعظم أسماك العالم . وبالأخص إذا مزجت بالنبيذ المجرى المستخرج من الكروم والأعناب التي تنمو على ضفاف البحيرة ، فان المثل اللاتينى يقول : « إن السمك المستخرج من الماء والمطبوخ فى الماء لايتحمل الماء مرة ثالثة » !

. . .

وعبرنا بلاتون ذات صباح فى زورق بخارى إلى الضفة الأخرى حيث تقوم « شيوفك » وبضع قرى مجرية ، هى مصايف أشرفت الطبيعة على تكوينها وعمل الانسان على تهذيبها وتجميلها .

فنى المجر دون سائر بلاد أوربا قد أدى هذا الاشتراك بين الطبيعة والانسان الى نتائج جديرة بالاعجاب . إذ على الرغم من ضيق مساحة المجر ، نرى فيها المناظر منوعة متباينة ، فهذه المصايف تمتاز بموقعها فى الجبال ، وتلك بالقرب من الغابات ، وهنالك سهول خضراء ، نسقت بينها الطرق المعبدة المرصوفة .

وتمتاز منطقة السهول بمبانيها المشيدة بالآجر ، المجفف فى الشمس والهواء . وأبوابها مقوسة مدهونة بالجير . كذلك الجدر ، فعليها طبقة جيرية ناصعة البياض . أما السقوف فهى مشيدة من الغاب بطريقة هندسية تثير حد الاعجاب ، ولا

غرو فقد صقلت السنون والأجيال مقدرة القوم ومهارتهم فى تشييد منازلهم .

بيد أن المناظر على الضفة الأخرى من الدانوب تختلف اختلافا بيناً ، فالمنازل مشيدة بالحجر . أما الاصطبلات وحظائر المواشى وتكاعيب العنب فتذكرنا بالفن المعمارى الرومانى . كذلك نقوش الحوائط الداخلية تذكرنا بالمقابر الفرعونية ، إذ تراها مزينة بالألوان الزاهية والرسوم الناطقة بجمال الفن ، التى تمثل الزهور والحيوانات على اختلاف أنواعها .

فى غير بلاتون وشيوفك أتيح لنا القيام برحلة قصيرة بالسيارات الى بعض المدن والقرى المجرية ، حيث التراث الشرقى ماثل بين الاطلال والمتاحف . فنى « إجر » التى تعد أجمل المدن المجرية ، شاهدنا بقايا مسجدها الكبير القائم بجوار المستشفى الخيرى ، ولم تبق منه سوى المئذنة البالغ ارتفاعها نحو أربعين متراً ، كذلك تفقدنا آثار سوقها الشرقية القديمة حيث كان يباع النحاس والحلى والسجاجيد والمشربيات المجلوبة من مصر والشام .

وفى مدينة استرجوم الكائنة على ضفة الدانوب اليمنى ، زرنا القصر البطريقى والكاتدرائية الملحقة به ، وهذه الكاتدرائية من الطراز الامبراطورى تعلوها قبة مرتفعة ينعكس خيالها فى الماء إذا آذنت الشمس بالمغيب . أما القصر فيحوى متحفاً تاريخياً للمسيحية فى بلاد المجر ، جمع طرفه المطارنة والبطارقة فى مختلف العصور . وأهم مافيه الأقمشة المعروفة باسم « الجوبلان »

والأبسطة الشرقيـة المزركشة والرسوم الزيتية والأوانى الذهبية والصناديق الخزفية الصغيرة وروائع فن النهضة ، وبديهى أن جميع هذه التحف والطرف كنسية بحتة ، فهناك مثلا مصطلى من الخزف رسمت عليه مناظر مأخوذة من التوراة . وفى مكتبة القصر مائة وعشرون الف مجلد ونيف ، أهمها إنجيل من القرن الحادى عشر ، ونسخة خطية من ترجمة التوراة الى اللغة المجرية يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر ، وترجمة أخرى من القرآن الـكريم لقسيس يدعي شارل ماير طبعت ببودابست فى القرن الثامن عشر .

وتمتاز مدينة بيكس بمنابرها الأثرية ومدافنـها القديمة التى تعود الى القرن الرابع ، وهى مزينة برسوم أثرت فيها الرطوبة ولـكن علماء الآثار استطاعوا اصلاحها ومعالجتها بطريقة فنية جعلتها فى مأمن من التأثرات الجوية . وفى المدينة عدة كنائس بنيت مكان جوامع ، وبعضها كانت جوامع وحولت الى كنائس ، كـكنيسة القديس يوحنا التى لا تزال بها مئذنة ارتفاعها نحو سـبعة وعشرين متراً ، وكنيسة الثالوث المقـدس .

أما كاتدرائية بيكس فهى من أجمل كنائس أوربا ، شيدت على الطراز « الرومانى ـ الايطالى » ، وهي تشبه من وجوه عدة الكاتدرائيات القديمة التى يرجع عهدها الى أوائل عصر المسيحية ، وقد نقشت على حوائطها مناظر فنية دقيقة منقولة من الـكتاب المقدس .

على أن أروع ماشهدناه فى تلك المدن والقرى المجرية ، هى الأقمشة المطرزة ، والخزف الشرقى ، والأشغال اليدوية المنزلية ، والدمى الخشبية الصغيرة بهيئة حيوانات برية أو زهور ، ومصنوعات خشبية أخرى جل جمالهـا عن الوصف ، كالأباريق وأوانى العطر ومقابض هراوة الراعي ، كذلك الملابس المزركشة بالفضـة والذهب التى يرتديها الفلاحـون فى أيام الآحاد والمواسم وحفـلات الزواج ، حتى لقد استقبلنا بباب إحـدى القرى سرب من هؤلاء القرويات ، تتدلى على سوقهن الثياب الموشاة بالحرير الملون ، وفهمنا أنهن يقصدن دائماً الى المحطات فى مواعيد وصول القطارات كاعلان ناطق عن الفن فى القرى المجرية .

ولا ريب أن المطرز وحائك الملابس يشغلان مركـزاً ممتازاً بين أهل القرى الذين أودعوا بين أيديهما فناً جميلا ، هو تراث الشعب المجري وفخر أجداده . ولقد استطاع هذا الشعب النبيل أن يخلق من حيـاة الريف وحدة متناسقة ، وأن يحتفظ بالروح الشرقية القديمة . وعلى الرغم من غزو الأتراك والنمساويين وتدفق سيل الحضارة الغربية على هذه البلاد ، فقد ظل المجري محافظاً على طباعه الشرقية متعصباً لقوميته ، ولم يتأثر مطلقاً باللاتينية أو الجرمانية أو السلافية التى حاولت أن تطغى على لغته وفنه وموسيقاه .

ففى خلال فترة قصيرة قضيتها متنقلا بين الريف المجري الجميل ، استطعت أن أكون فـكرة واضحة عن الروح الشرقى

المتأصل فى نفوس أهله ، فهو ماثل في إكرام الضيف ، وفى الايمان بالقضاء والقدر ، وفى التعلق بالأرض التى يدعونها « أمنا الرؤوم » ، ويعتبرونها رمزاً للثروة القومية ، ويسمون القمح « حيـاة » . أما الجواد والثور فليسا من الحيوانات المفيدة للزراعة فحسب ، بل هما بمثابة أفراد فى العائلة ، يقدسهما المجرى ، ويحمل لهما فى قلبه ، نفس المنزلة التى يحملها الفـلاح المصرى لمواشيه .

لقد حدث منذ ألف سـنة أن نزحت قبيلة أسيوية صغيرة ، من أعالى جبال طوران ونزلت فى البقعة المعروفة اليوم باسم المجر . وتقول الأساطير إن فارسين أحـدهما يدعى مجر والآخر هنور اختطفا فتاتين جميلتين وذهبا بهما بعيداً عن أهليهما . ولما ضلا الطريق استـرشدا بوعل أبيض فقادهما الى بلاد نائية أقاما فيها حتى كونا شعباً كبيراً هو الشعب المجرى .

ولما كان الشعب المجرى شعباً زراعياً يحسن الصيد وركوب الخيل ، فقد اختار لنفسه أصلح بقعة تحقق أغراضه،وهى الـكائنة بين الدانوب والتنرا ، مفضلين إياها على شواطىء الرين الجميلة ، وعلى جبال الألب ذات القمم الجليدية .

جاهد الشعب المجرى ، وبذل الدماء رخيصـة فى سـبيل الاحتفاظ بتلك الأرض الخصبة ، وبفضل مقـدرة المجريين على البقاء ، ورغبتهم فى تأسيس دولة مستقلة يعيشون فيهـا دون

سواهم . ظلت القومية المجرية وحـدة مستقلة ، رغم الحروب والمهاجرات .

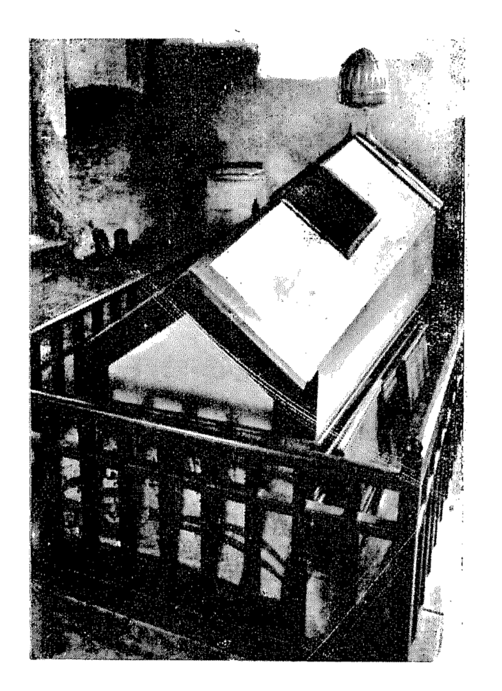
فالمجرى يحب وطنه وقوميته ، ويغار على تقاليده الموروثة . لـكنه بازاء ذلك لا يتردد عن التطبع بطابع المدنية الحديثة ، بشرط عدم المساس بأخلاق البـلاد وعاداتها . وقد عبر السياسى المجرى العظيم ، الـكونت أبوني ، عن تلك الفكرة بقوله : « إن الحضارة المجرية ثابتة لاتتغير . فهى الحضارة الأوروبية ممتزجة بالروح الشرقية ! » .



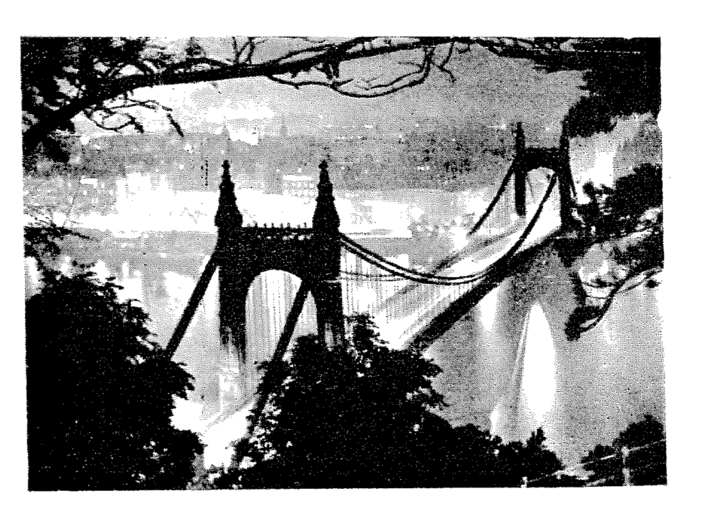
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
رسول الاسلام فى أوربا



حمام ترکی بوداپست



ضریح جول بابا بیودابست



بودابست فى الليل

الاسلام فى بلاد المجر

أثارت زيارتى لضريح « جول بابا » ببودابست خواطر وذكريات مختلفة تدور حول مجد الاسلام وعظمة الدولة العثمانية التى غزت قلب أوربا حتى وصلت الى أسوار فيينا .

فان أهم ما يجلب أنظار المسلمين فى بودابست أنها المدينة الوحيدة التى استطاعت الاحتفاظ فى قلب أوربا بضريح ولى مسلم هو « جول بابا » . وعلى الرغم من أن نصرانية القرون الوسطى محت كل أثر للمسلمين فى أوربا بعد نزوح الأتراك عنها، فحولت المساجد الى كنائس والتكايا الى مستشفيات والقصور الى فنادق أو مسارح ، فانهم لم يستطيعوا أن يمسوا ضريح « جول بابا » بسوء ، وهذا يرجع الى الاعتقاد السائد فى النفوس وهو أن الرجل كان تقياً صالحاً كالقديسين .

يقع هذا الضريح فى ناحية « بودا » فى سفح التل المسمى « تل الورد » ،وهو يشرف على نهر الدانوب ، وفوق القبر قبة مرتفعة مشيدة على طراز القباب التركية ، وفى داخل الضريح صفة « ليوان » مفروش بالسجاجيد الوثيرة تجتمع عنده «جمعية جول بابا الاسلامية » فى الحفلة السنوية التى تقيمها إحياء لذكراه ،

ومنذ عشرين عاماً اعترفت الحكومة المجرية بالضريح رسمياً وقررت ضمه إلى عاديات الدولة وخصصت مبلغاً من المال للانفاق على صيانته سنوياً .

كان جول بابا — ومعناه فى الفارسية «زر الورد» — شيخاً لطريقة البكتاشية، وهى طريقة صوفية كان لها أرفع مقام فى الدولة العلية ؛ لأن مؤسسها حاج بكتاش الكبير هو الذى بارك الجيش العثمانى الفاتح قبل دخوله القسطنطينية ؛ فتم للجيش الظفر والنصر . وظل للبكتاشية بعد ذلك شرف تطويق كل سلطان جديد بسيف السلطان عثمان ، ومباركة الجيوش العثمانية قبل توجهها الى حروبها، وقد حدث أن كان « جول بابا » يشيع السلطان سليمان القانونى فى غزواته التاريخية المشهورة وكانت عقيدة السلطان بالنسبة له قوية، فطلب اليه مرافقته علي سبيل التبرك ، ومن توفيق الله أن النصر كان حليف الجيش العثمانى فى كل موقعة غزا بها بلاد البلقان، حتى وصل الجيش الى حدود المجر، ثم اقتحمها واستولى على عاصمتها .

وبعد دخول العثمانيين الى بودابست بأسابيع قلائل كان « جول بابا » يصلى بالمسلمين الجمعة فى كنيسة ماتياس التى حولها الجيش الفاتح الى مسجد رسمي ، وكان السلطان سليمان القانونى فى جملة المصلين ، وفى خلال الصلاة وقع « جول بابا » مغشياً عليه وفاضت روحه لساعته . فبكاه السلطان وبلغ من تقديسه لشخصه أن حمل النعش على كتفه ، ثم أمر بأن يبنى له

ضريح عظيم فى أجمل بقعة ببودابست ، فشيد الضريح فى سفح تل كان مغروساً بالورد ، وظل مكاناً مقدساً يؤمه مسلمو أوربا للزيارة والتبرك دون أن يبحثوا عن حقيقته . ويخيل الى أن الأتراك لم يكونوا ليفرقوا فى هذاالعصر بين الأولياء والدراويش ، على أنه مما مكن عقيدة المسلمين فى « جول بابا » ان الحظ خذل الجيش العثمانى الفاتح بعد موته فارتد عن أسوار فيينا . وكان انكساره فى هذه الموقعة بدء تقلص ظل آل عثمان عن أوربا الوسطى .

. . .

لعب الاسلام دوراً هاماً فى تاريخ المجر . فالمسلمون هم الذين افتتحوا طريق التجارة بين أوربا والشرق ، واحتكروا تجارة الأسلحة والحبوب والأغنام والأقمشة والحلى بين فارس وتركيا ومصر وبين أوربا ، حتى إنه من المشاهد فى القرى المجرية أن الزينة والنقش وتطريز الملابس فارسية الأصل . كذلك كانوا أول من حمل الى أوربا القهوة ، وشيدوا الحمامات ، وقد ساعدهم على ذلك وجود ينابيع كبريتية فى بودا ، أقيمت فوقها حمامات على طراز عربى بقباب وأهلة نحاسية ، وكانت هذه الحمامات فى الماضى تحتل المكانة التى تشغلها كرلسباد وفيشى فى العصر الحديث . ولا ننسى ان المسلمين احتكروا جباية الضرائب فى بلاد المجر ، فكانت الجالية الاسلامية هى الملتزمة تحصيل الضرائب ، بل إنها أقرضت الحكومة مبالغ طائلة فى مقابل أن تحتكر سك النقود ، وبذا استطاع المسلمون تأسيس دور

اضرب المسكوكات . ومن سخرية القدر أنه لما قاد ملك المجر جيشه فى الحروب الصليبية متجها شطرسوريا الاسلامية ، كانت النقود التى يتعامل بها الجيش منقوشاً عليها «لا اله الا الله» .

تعود الروابط بين المسلمين والهنجاريين الى انهما فى الأصل شعب واحد شب حيناً بين جبال أورال وحيناً على ضفاف بحر قزوين وبلاد القوقاز . ثم امتزجا بالأتراك زهاء خمسة قرون حتى تلقوا عنهم الزراعة والفنون الحربية ،وعلق باللغة المجرية مئات من الكلمات التركية ، وتوثقت بين الشعبين صلات رحم وقربى . فكانت النتيجة أن تولد جيل جديدوشعب متأثربالثقافة الطورانية .

وفى نهاية القرن الثامن للميلاد شدت هذه القبائل المجرية الممتزجة رحالها واتجهت شطر الغرب حيث أقامت نحو قرن فى جنوب روسيا المعروف باسم أوكرانيا . وفى هذه المنطقة هاجمتهم قبائل المجناق وهزمتهم فانشطروا شطرين : الأول وهو الأكبر اتجه صوب الغرب ، حيث استقر فى جبال الكربات . أما الشطر الأصغر فعاد الى الشرق وقد اقتفت آثاره بعض البعثات فى خلال أجيال عدة للوقوف على نسله ولكنها لم تعثر على شىء.

أما الشعب المجرى الحديث فقد وصل فى عام ٨٩٦ من جبال الكربات الى بانونيا وهى المعروفه اليوم ببلاد المجر ،وهذا الشعب الجديد الذى هو فى الواقع نتيجة تمازج بين المجريين

الأصليين وبين السلافيين الذين كانوا يقطنون بانونيا قبلهم ، شن الغارة على الأراضى المجاورة له بقصد نهبها والاستيلاء عليها حتى بلغ فى غاراته حدود المانيا .

ولكى تدفع المانيا غارة الشعب المجرى عن بلادها بدأت تمهد له السبل للدخول فى النصرانية . وبتأثير القائد المجرى سان استيفان الذى نصب نفسه ملكا على البلاد ، بدأ المجريون يدخلون المسيحية أفواجا . ولرضاء البابا عن جهود سان استيفان في نشر لواء المسيحية توجه بتاج لا يزال شعار الأسرة المالكة.

وكان بين القبائل المجرية التى نزحت عن موطنها الأصلى وأقامت على ضفاف الدانوب ألوف من المسلمين هم خليط طوائف متباينة كتجار ومزارعين أعجام ظلوا محافظين على شعائرهم الدينية ، واستوطنوا مناطق بالقرب من العاصمة وانتشروا فى السهول الزراعية وأظهروا براعة فى الشؤون التجارية والصناعية، ولاتصالهم بالشرق الاسلامى اكتسبوا فى فترة قصيرة مميزات اجتماعية واقتصادية وبالأخص فى الدوائر الحكومية .

وكانت أوربا فى ذلك الوقت لاتسمح باقامة الشعائر الدينية الاسلامية فى ممالكها . ولذا حاولت ان تحمل هؤلاء المسلمين على تغيير دينهم واعتناق النصرانية ،وكثيراً ما سنت القوانين الصارمة ضدهم.

ولاتزال أسماء بعض المدن والقرى فى المجر تدل على أنها فى الأصل اسماء عربية ،وهى تمتاز باضافة كلمة «برمان» الى اسم

القرية لتدل على ان المسلمين كانوا يقطنون فيها . أما «برمان» فتعني كلمة مسلمـان أى الاسـلام . ويطلق عادة على المسلم المجرى : «الاسماعيلي» وقدجاءهذاالاسم من اسماعيل بن هاجر الذى نزح الى جزيرة العرب . ولا يفهم من هذا أنهم من الشيعة الاسماعيلية كما يعتقـد البعض ، فهم من أهل السنة على مذهب أبي حنيفة .

ومما يذكر انه حدث فى القرن الثالث عشر للميلاد أن سافرت بعثة مدرسية مكونة من أربعين مجرياً مسلمـاً الى مدينة حلب بسوريا لدراسة الفقه الحنفي تمهيداً لتعيينهم قضاة وأئمة فى أوربا الوسطي .

وبعد ان استولى العثمانيون على مصر ولقب السلطان «بالخليفة» اتجه سليمان القانونى شطر المجر فاستولى على عاصمتها بودا واتخذها قاعدة عسكرية هامة . وكان الغرض الحقيقي الذى يرمى اليه من وراء الاستيلاء على المجر ، هو افتتاح بلاد النمسا فاتخذ السلطان سليمان القانونى من المجر خط دفاع ضد النمسا . ولـكن لما خضدت شوكة العثمانيين ، وارتد الجيش الفـاتح عن أسوار فيينا ، نزحوا عن بودابست ونزلوا عن جزء كبير من بلاد المجر وهو القسم الذى دخل فيما بعد فى حوزة الجيش النمساوى.

وقد اضطهد النمساويون الـكاثوليك المجريين إذ أنهـم بروتستانت فشبت الثورة ضـد أسرة هابسبرج الحاكمة، وأخـذ القائدان تـكلى وراكتس على عاتقهما تحرير البلاد من نيرالنمسا .

وفى خلال نشوب هذه الثورات كان الخليفة يمد يد المساعدة للمجريين، ولكن الثورة انتهت بفشلهم، فلجأ قوادها الى الاستانة حيث وجدوا ترحيباً عظيما بهم وظلوا معززين مكرمين الى أن ماتوا ودفنوا فى الأراضى الاسلامية .

وكانت أوروبا فى ذلك الحين قد بدأت تزدهر فيها العلوم والفنون والآداب فى الوقت الذى صارت فيه بلاد المجر خرائب واطلالا خالية من السكان ، فاضطرت الحكومة الى أن تستقدم مزارعين من البلاد المجاورة وتوطنهم الأراضى ليكملوا النقص الذى أحدثته الحرب فى الرجال ويعمروا الأراضى ويضمنوا للحكومة جباية الضرائب ، وشجع أمبراطور النمسا هجرة هذه العناصر الى المجر ليمد البلاد بطبقة الزراع . فساد فى ذلك الوقت نظام الاقطاعيات وبسببه وجدت طبقتان : الاولى النبلاء والثانية الشعب .

وقد حملت الثورة الفرنسية الى المجر مبادىء الحرية واعلان حقوق الانسان ،وكانت سبباً فى شبوب ثورة دامية ضد النمسا ورفع نيرها عن البلاد . على أن العناصر الأجنبية التى استوطنت الأراضى الزراعية نادت بأن تكون لها حقوق وامتيازات كالأقليات ،بل انها تحالفت ضد المجريين فى ثورتهم .

وبعد أن خمدت الثورة الثانية لجأ زعيمها كوشوت ومئات من قوادها الى دار الخلافة حيث استظلوا بحماية الخليفة واعتنقوا الدين الاسلامي وانخرط البعض منهم فى سلك الجيش العثمانى

واشتهروا ببسالتهم فى حروب القريم .

...

عندما تم جلاء الدولة العثمانية عن بلاد المجر خلفت وراءها مساجد وتكايا وأضرحة وأوقافا لاتحصى . ومما يؤسف له أن هـذه المساجد حولت بمرور الزمن الى كنائس وقصور وفنادق وثكنات عسكرية . وكانت السياسة التى انتهجتها النمسا ترمى الى القضاء على كل نفوذ أدبى للخليفة ومحاربة كل حركة إسلامية تقوم فى بلادها ، حتى نزح ألوف المسلمين عن النمسا والمجر ، ولم تبق منهم سوى أقليات ضئيلة لايؤبه لها .

والمسلمون الآن فى المجر لايزيد عددهم على ألفى نسمة ، يقيم أكثرهم فى مدينتى بيـيج وإجر ، وقرية حمزة بك التى لاتزال تحتفظ بمخلفات تاريخية إسلامية كبعض المآذن والقباب والحمامات التركية . وفى بودابست وحدها ثلاثمائة مسلم ، حالتهم الاجتماعية سيئة للغاية ، وهم فقراء يزاولون الصناعات والمهن الوضيعة ، ويخضعون فى أحوالهم الشخصية للقانون المدنى ، ولا يتلقى أولادهم أصول التعاليم الدينية ، بل تراهم يختلطون بالمسيحيين، مما يخشى أن يفقدوا عقيدتهم الدينية فى هـذا اليم المصطخب . فهم بعكس جيرانهم مسلمى يوجوسلافيا الذين يعدون من كبار الأغنياء نظراً الى أنهم أصحاب الأراضى الزراعية والعقارية ، حتى إن لهم مقاعد فى مجلس النواب ، وحزباً سياسياً عظيما يرأسه السيد محمد سباسو .

وليس للمسلمين فى بلاد المجر مسجد لاقامة الصلاة : انما يقيمونها فى بهو فندق « اسبلانا » ببودا . وبالنسبة الى أن أكثرهم من طائفة البشناق فقد انتخبوا من بينهم إماماً رسمياً هو السيد حسين حلمى ، وقد تلقى علومه الدينية في الأزهر لثلاثين عاماً خلت،وشغل فترة طويلة مركز إمام آلاى فى الجيش النمسوى . ويوجد مفتى آخر هو السيد عبد اللطيف افندى ، كان إماماً للسفارة العثمانية فى بودابست . ورغم أن تركيا ألغت الامامة من سفاراتها ولم تعد لعبد اللطيف افنـدى صفة رسمية يستند اليها ولا سلطة دينية يمارسها : فان السفارة لاتزال متمسكة به ، لمقاومة أية نهضة دينية ترمى الى إحياء مجد الاسلام فى البلقان ، أو تقوية الروابط الدينية بين البلقانيين وبين بيت آل عثمان منعاً من أن يجد الخليفة حزباً يناصره فى أوربا تمهيداً لعودته الى استامبول .

وكنت قد انتهزت فرصة إقامتي ببودابست ، فقصدت فى يوم الجمعة الى « فنـدق اسبلانا » للاجتماع باخوانى المسلمين . وقادنى الخادم الى البهو المخصص لاقامة الصلاة ، فاذا به فسيح ، مفروش بالسجاد الوثير ، ومنقوش على الحائط بالألوان الزاهية شكل قبلة خط فوقها « لا اله إلا الله » . وكان عدد الحاضرين لا يتجاوز الثلاثين نفساً ، ليس بينهم من يحسن التكلم بالعربية غير الامام ، ومما لاحظته أن خطبة الجمعة كانت فى اللغة المجرية ، على حين أن الأذان وفروض الصلاة بالعربية .

وأطلعنى الامام على مشروع يراد به إقامة مسجد ومعهد دينى لتعليم أولاد المسلمين وتفقيههم . وعلى الرغم من أن الحكومة منحتهم قطعة من الأرض فأنهم لايجدون المال الكافى لتشييد المسجد ويؤملون المساعدة المادية من مسلمى مصر والهند والشام . وهم يجتمعون الآن للصلاة فى بهو الفندق بصفة مؤقتة ، ويحيون فيه الأعياد والمواسم الاسلامية ، وينتهزون فرصة عيد الأضحى فينحرون الذبائح ويقدمون اللحوم والثريد الى فقراء بودابست بصرف النظر عن أديانهم ، حتى إن كبار رجال الدولة والأعيان يفدون على الفندق لتهنئة المسلمين بحلول أعيادهم .

وفى بودابست رابطة إسلامية باسم « جمعية جول بابا » . أسست من بضع سنوات للدفاع عن الاسلام ، والسعى فى ترقية حالة المسلمين المجريين من الناحية الاجتماعية والأدبية ، وانشاء مسجد ومعهد علمى يفقهون فيه أصول دينهم . ومما يدل على اهتمام الأوساط الرفيعة بشؤون الجمعية ان بعض النبلاء المسيحيين أظهروا عواطفهم المقرونة بالمساعدة المادية ، نظراً الى أن المجريين والمسلمين ظلوا إخواناً يتشاركون السراء والضراء زهاء ألف عام .

وقد أسندت رياسة « جمعية جول بابا » الى البارون باريني أمين التاج فى القصر الملكى . ومن أعضائها الممتازين : رئيس الوزارة السابق شيمونى وهو شيخ فى السبعين ، والدكتور بارتس مدير البلدية ، وبكل فلوش حاكم السواحل ، واسوليفتش محمد بك ، وكاتم أسرارها الدكتور عبد الكريم جرمانوس أستاذ

التاريخ الاسلامي بجامعة بودابست .

وعلى الرغم من الجهود المتوالية التى بذلتها الجمعية فقد استطاعت أن تتقدم الى البرلمان بمشروع اعترف فيه بالاسـلام وأقره كدين رسمى من أديان الدولة ، وأن تعيد الأذان الى جو بودابست بعد أن ظلت محرومة إياه نحو مائتين وخمسين سنة ، وأن تحمل الحكومة على التبرع بقطعة كبيرة من الأرض بالقرب من ضريح « جول بابا » والتصريح بأقامة مسجد عليها . لـكنها لاتجد ماتنفقه على البناء رغم مابذله الدكتور بارتس من ماله الخاص ورغم تبرعات أخرى من جيوب المسيحيين .

حدثنى الدكتور جرمانوس ذات يوم عن مشروع تأسيس المسجد ، فقال : «إن الفكرة تمت فى خلال الحرب العظمي حين كان المجريون يقاتلون فى صفوف الاتراك . وبعدالهدنة أوفدتنى الجمعية الى استامبول للحصول على فتوى دينية من شيخ الاسلام خيرى افنـدي بشأن التبرعات التى تجمع من غير المسلمين لبناء مسجد فى أرض غير إسلامية ، وهل تعد حلالا أم حراماً ؟ فأجاب فضيلته بجواز بناء المسجد ، وأشار على كمال افنـدى المهنـدس المعمارى لدار الفتوى بتخطيط رسوماته » . ثم أضاف الى ذلك قائلا : « لقد استطعنا أن نهدى عشرة الي الاسلام فى بودابست على قصر زماننا وسوء حال الجماعة ، والفضل فى إسلامهم لامامنا السيد حسين حلمى الذى يطلب المعونة من المسلمين فى جهات كثيرة وقليلا ماترد . نحن في أشـد الحاجة الى معونة العالم

الاسلامى وبالأخص الأزهر . فى حاجة الى بعثة دينية تفقه مسلمى المجر فى أصول دينهم وترشدهم الى سبيل الحق واليقين .
وفى اعتقادى أن الاسلام دين الاذهان المستنيرة ، وأن أصحاب العقول البارعة يجدون فيه ميزات تستولى على اعجابهم وأنه الدين الذى سيكون فى يوم قريب أو بعيد معتقد الطبقات الرفيعة فى العالم . وأنا أعرف فى بلادى وفى أوربا كلها رجالا مستنيرين فى أرفع الأسر يحترمون الاسلام ويوشكون أن يتخذوه ديناً ولوفى سرائرهم . ومنذ خمس سنوات أسلم فى فينا رجل من أعرق الأسر الأرستقراطية هو البارون آرن فلس . وسمى نفسه «عمر» وأسلم مجرى آخر كبير هو فيلكس فاى وقصد الى سويسرا ينشر فيها مجلة إسلامية . وهذا دليل على سمو الاسلام الروحى والذهنى . لانه يستولى على ذوى الأذهان وكبار رجال الفكر حتى إن الذين لايؤمنون ولا يدينون بالاسلام لايستطيعون أن ينكروا النور الذى أضاء العالم من الأندلس الى الصين واليابان ، لايستطيع ذلك مسيحى ولا بوذى ولا موسوى ولا رجل من أى دين .

ليس الاسلام سحراً ولا طلسما، ولكنه دين الحق والقوة واليقين . واولئك الذين يخشون عليه من الآراء الحديثة لا يقدرون الحقائق الجوهرية حق قدرها ، ولا يسايرون تيار الحضارة القائمة على قواعد أخلاقية ثابتة . فالمسيحية مثلا لم تفقد شيئاً من هيبتها رغم الاكتشافات الحديثة وتقدم العلم . بل

بالعكس ازداد الدين تعمقاً واتجاهاً نحو الشعور الانسانى والاندماج فى المحيط العالمى . وتقدم المسيحيين أمر لا يرجع الى اعتناقهم النصرانية وتشبعهم بمبادئها بل هو نتيجة نشاطهم فى عالم الفكر والأخذ بتوسع فى حرية البحث ومواجهة الحقائق على علاتها . فليتعظ المسلمون وليعلم الجهلة المتطرفون الذين يخشون على الاسلام من حرية البحث ومن الآراء الحديثة ، انهم هم أعداء الاسلام وسوف يعرقل نهوضه جمود أفكار هذه الفئة ، لأن الاسلام دين ثابت ، مكشوف للعالم .

ولست أعنى من دنياي شيئاً سوى أن أتمكن من نقل كتاب الله الكريم «القرآن» الى اللغة المجرية ، فقد نقله اليها عن اللاتينية عام ١٨٣٢ قسيس حرفه تحريفاً فيه سوء . وسوف لا يستقر الشوق فى نفسى حتى أنجز هذا العمل الذى بدأته منذ عشر سنوات .

لقد ظلت طائفة من العلماء تعترض على ترجمة القرآن بحجة أنه سيكون باعثاً لفصم عرى الوحدة العربية ، مع أن هنالك ألوفاً من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يحفظون الكتاب الكريم دون ان يفقهوا معناه . واذا سلمنا بأن الاسلام في حد ذاته هو التشبع بالمبادىء الروحية السامية القائمة على طهارة النفس ونقاوتها مما يشوبها ، فهل يمكننا والحالة هذه ان نعترف بأن الالهام السماوى بالغاً من التقديس أى مبلغ يؤثر فى نفوس من لا يفهمونه ؟ لاريب ان الله حين أنزل القرآن شاء أن يعم

نشره بين البشر كافة ، لا ليجعله وقفاً على اولئـك الذين يحتكرون معناه فى صدورهم ولا يعملون على اذاعته بين الذين هم أقل منهم فى المعرفة » .

بهذا الاخـلاص وهذه الحرارة ختم الأستاذ جرمانوس حديثه معى . ثم أكب على كتاب عربى كان يراجع فيه .

وقد فاتنى أن أذكر انه يوجد بمتحف بودابست الوطنى قسم خاص بالآثار الاسلامية ، كالأسلحة الحربيـة المطعمة بالجواهر الكريمة والسروج والمسابح والخيام ومسكوكات ذهبية وفضية ، وفي جامعة بودابست شعبة لدراسة العلوم الاسلامية تولى الاشراف عليها فريق من نوابغ المستشرقين ، يكفى ان أخص بالذكر منهم العالم الكبير فامبيرى الذى اعتنق الاسلام وكان فى وقت ما استاذاً لابنة السلطان عبد الحميد ، والمستشرق جولد زهير الذى توفى منذ بضعة أعوام فى الحلقة الثامنة . وقد درس هذا المستشرق العلوم الاسلامية فى الأزهر وتتلمذ للمرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، وما ان عاد الي بلده مزوداً بعلوم الأزهر حتى عني بالتفسير والحديث والفقه وشغل كرسى أستاذ العلوم الشرقية بالجامعة زهاء ثلاثين عاماً .

ومما يحسن ذكره ماسمعته من شيخ العروبة المرحوم احمد زكى باشا انه لما زار بودابست قبيـل الحرب وشهد دروس الاستاذ جولد زهير فى تفسير القرآن قال : « لم أشهد فى حياتى أعجب من يهودى يدرس قرآن المسلمين للنصارى ! » .

فيينا

«بلد الفن والموسيقى»

يقطع القطار السريع الذى يغادر بودابست فى الساعة الرابعة بعد الظهر المسافة بينها وبين فيينا فى نحو أربع ساعات . ويقف نصف ساعة فى محطة الحدود التى تفصل المجر عن النمسا فيصعد إلى عرباته مراقبو جوازت السفر ورجال الجمرك يحيون الركاب باحترام ويؤشرون على جوازاتهم ، ثم يسألونهم فى رقة وأدب عن أمتعتهم دون أن يفتحوا حقائبهم ...

وانطلق القطار بنا بين سهول المجر الخصبة ونحن نمر فى طريقنا بالوديان والمراغى وآلاف الرموس المرموز لهـا بصليب من خشب وباقة يابسة من الزهر ، حتى اذا ما اقتربنا من محطة الحدود كانت الشمس قد أخذت تميل منحـدرة نحو الشفق تحيط بقرصها الوردى الملتهب أنوار ذهبية باهرة ، ثم تتغير هذه الألوان بعد لحظة فيذبل لون الورد ويذوب احمراره شيئاً فشيئاً عند نهاية الأفق ، ويتحول ذهب السماء الى لون سنجابى تتوسطه مروحة كبيرة هى مرآة القمر الوليد .

وتابع القطار سيره بعد اجتياز الحدود ، فهبت طراوة الليل

البليلة تهدىء أعصابنا وتبعث شيئاً من النشاط الى نفوسنا،وشغلت بالحديث مع سيدة من أهل فيينا كانت الى جانبي في ديوان العربة عن الحياة الفكرية والفنية في بلادها،وذكرت لها ماقرأت عنها وما أثار في نفسي عاطفة الاعجاب ، ثم انتقلنا الى الحديث عن نكبة الحرب ومعاهدة سان جرمان التى فصلت النمسا وجعلت منها ثلاث دويلات ، وكيف أكرهها الظافرون على أن تظل تحت وصايتهم وأن ينتقصوا من أطراف النمسا لتبقى بمعزل عن شقيقاتها . حتى اذا ماتبدت أمام أعيننا عمائر فيينا وقد ألقى الضباب عليها سدولا رقيقة ، قطعنا الحديث ،وقام كل منا الى متاعه يتعهده .

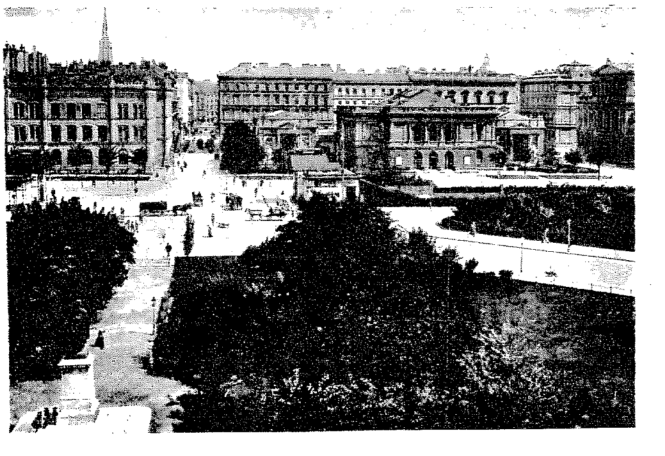
. . .

فيينا اسم ساحر جذاب لهاته المدينة الخالدة التى ظلت مدى أجيال طويلة مستقر حضارة راقية لا تمت بصلة الي غيرها من الحضارات .

وابن فيينا هو ذلك الرجل الذي انحدر من الجبال والأودية مزوداً بما بعثته الطبيعة الفتانة فى نفسه من حب وشعر وولع بألوان الجمال .

ومن الطريف أن كلمة فيينا مشتقة من« فان » ـ أى النبيذ ـ ولذا تعد بحق بلد النبيذ المعتق . وقد يروعك كثرة مزارع الكروم التى تحيط بالعاصمة كالزمردة في عنق الحسناء .

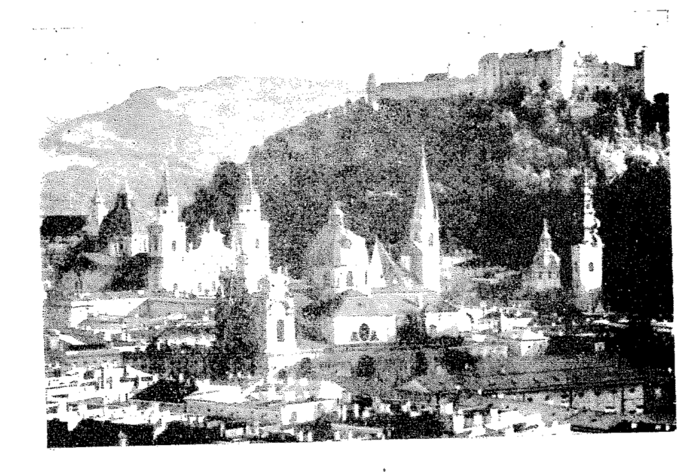
***



متحف الفنون الجميلة بفيينا



الشونبرون



سالسبورج



مهد النسر الصغير

ولكن ماأنعس فييناالیوم، وما أشد بؤس أهلها !

لقد أصبحت المدينة الخالدة التى أذلتها الحرب ودقت عنقها: كالملكة المخلوعة غادرت عرشها وفقدت صولجانها وتقطعت الأسباب بينها وبين غابر عزها، فلم تبق لها سوى ذكريات أليمة وهم مقعد، وبعد أن كانت فيينا عاصمة امبراطورية عظيمة الشأن تعدادها ستون مليونا، أصبحت عاصمة جمهورية صغيرة لا يزيد سكانها على ستة ملايين !

وهذه الظاهرة السيئة التى خلفتها الحرب جعلت من فيينا مبعث ثورات واضطرابات فى حياتها السياسية والاقتصادية، فالاشتراكية والفوضوية وما إليها من المبادىء الهدامة تجد مرتعاً خصيباً فى نفوس أهلها . أذكر أن الأسبوع الذى قضيناه فى فيينا كان عقب مقتل المستشار دولفوس بفترة وجيزة، فكانت الأحكام العرفية معلنة والشوارع محاصرة والأبنية الحكومية يحرسها الجند بالمدافع والرشاشات . ومن المظاهر الاقتصادية السيئة أن معظم المقاعد فى المسارح والأوبرا خالية لأن الناس يتهافتون فى أوقات فراغهم على سماع الموسيقى فى القاهى بثمن زهيد، ومامن نمسوى تجلس اليه إلا شكى اليك البطالة وسوء الحال الاقتصادية فى بلاده .

على أن فيينا رغم الظواهر السيئة التى خلفتها الحرب العظمى فى عواصم أوربا ومدنها لاتزال تحتفظ بالطابع الارستقراطى الفخم الذى يميزها من غيرها، ولاتزال مركز الآداب الرفيعة

ومهد الموسيقى الراقية التى ضاعف روعتها هايدين وفاجنر وموزار وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم ممن ترى تماثيلهم منثورة بين جوانب حديقة الرنج .

ولا يزال لأهل فيينا فضل السبق فى الرشاقة والتفوق فى ابتكار الأزياء ومنافسة أهل باريس فى الذوق وفى استيعاب صنوف الثقافة . فالفكر المشتعل والتهذيب الجم المتواضع والذكاء اللامع هى الصفات البارزة التى تلمحها فى وجوه أبناء فيينا .

هذه الظاهرة الفنية الراقية التى اشتهرت بها فيينا من أقدم العصور جعلت منها مهبط مئات الموسيقيين والفنانين والمثالين ورجال الفكر ، يأتونها من أطراف الأرض ؛ فلا يلبثون أن يتشربوا روحها حتى تتفتح عبقرياتهم ويعلو صيتهم .

أتاها الموسيقار بيتهوفن فى صباه مبعوثاً من قبل شقيق القيصر ليحذق فنون الموسيقى ويتتلمذ لموزار وشنك وهايدن فلم تلبث نفسه أن أخلدت الى جمال فيينا ، وآثرها على وطنه ، حتى بلغ من هيامه بها أن كان يجلس طول يومه بين الحدائق والمتنزهات ، غير عابىء بتقلبات الجو ولا تساقط المطر ليستلهم من طبيعة فيينا صوغ ألحانه .

. . .

كان الفندق الذى نزلت به يقع فى أطراف «الرنج شتراس» والرنج فى فيينا بمثابة القلب الذى يوزع ألوان الحياة وضروب اللهو والمتاع . ففى هذا الحى تقع دار الأوبرا ومعازف الموسيقى

ودور الغناء والرقص : تتخللها الحدائق والمتنزهات بحيث تجد الروح غذاء والعقل متاعاً والقلب راحة ومسرة .

أما أوبرا فيينا فهى آية من آيات المجد الناطق حين كانت العاصمة مركز الثقافة والعلم والفن ، ومحور الترف والنعيم . وهى اليوم معبد الموسيقى الراقيـة والرقص الرفيع العالى ، وحجى عظماء الموسيقيين ممن كانوا شهباً ثاقبة فى سماء هـذا الفن . ألم يحج اليها قياصرة ارتدوا ثوب ملوك الفن ، وزهـدوا فى الملك وأبهته فى سبيل أن يخلدوا فى سجل الموسيقيين ؟ أجل ! فكما أن لويس الخامس عشر كان راقصاً ماهراً ، كذلك كان الامبراطور ليوبلـد الأول مغنيا بارعاً ، وكان كل من جوزيف الأول وشارل الرابع مؤلفاً موسيقياً ، وكان يسرهم أن تردد أوركسترا الأوبرا « الفيلهارمونيك » مقطوعاتهم قدرما يرضيهم أن يردد الشعب الهتاف باسمهم فى الشوارع والمجتمعات .

دلفت الى أوبرا فيينا ذات مساء كانت تعرض فيـه رواية فيجاروس . فما أخذت بروعة العمارة وبهرة الزينة وتألق الأنوار الى جانب ما استمتعت به من سماع موسيقى علوية توحى الى الأذن ما توحيه فى العين براعة التمثيل وجمال الملابس .

وهبطت فى ليلة أخرى الى دار من دور العزف الموسيقى ، ولكن شتان بين مايعرض فى هذه المـلاهى وبين مانشاهده فى مصر . بدأ العرض بأن صدحت الموسيقى بنشيد « الله ملجؤنا » لموزار فاذا بالأعناق تتطاول والانفاس تخفت والأرواح تحلق

فى هذا الجو الفنى الجميل الذى تجد فيه غذاءها . حتى اذا ما انتهى اللحن دوت القاعة بالتصفيق واهتزت الرؤوس من نشوة الطرب. ثم عرضت علينا ألوان من الرقص والغناء ، رقص خفيف جذاب وغناء يشعرك أن القصد منه ارضاء النفس وبهجتها لا إثارة الحواس واستفزازها .

أتراني وقد تحدثت بعض الشيء عن أوبرا فيينا وملاهيها أتناول ناحية أخرى أشد اتصالا بالحياة الليلية ؟ هذه الناحية تتمثل فى المقاهى المتناثرة فى حى الرنج فأن لبعضها من الطابع والجاذبية مايشوف السائح لأن يقضى فيها بعض الوقت يستمتع بهذا العبير الشرقى المنبعث فى جوها أو يستمع الى أنغام الموسيقى التى يرتدى ضاربوها ملابس أنيقة مزركشة أو يطالع صحف العالم وهى معروضة بالعشرات فى المشاجب .

لست أنسى أول مرة قصدت الى أحد هذه المقاهى فما أدرك الساقى أنى مصرى حتى قدم الى مجموعة من الصحف العربية الصادرة حديثاً فكانت مفاجأة سارة نقبلتها فى كثير من الغبطة؛ فقد مرت أسابيع وأنا فى لهفة وشوق للوقوف على أنباء بلادى .

...

يصل الانسان من الفندق الذى نزلت به الى قصر البرج سيرا على الأقدام فى دقائق معدودة . وهذا القصر الذى يقع فى قلب فيينا كان الى عهد قريب مقر الامبراطور فرنسوا جوزيف الذى توفى فى خلال الحرب العظمى ، وقد اكتفوا بأن حولوا

جزءا منه إلى متحف يعرض فيه أثاث القصر ونفائسه وان تؤجر بقية الأجنحة والغرف مكاتب تجارية ومصالح حكومية .

اجتزنا مدخل القصر الى فنائه الداخلي وبعد أن وقفنا برهة خاشعين أمام تمثال الامبراطور فردريك الأكبر ارتقينا الدرج الى الطابق الأول حيث دفعنا بضعة قروش رسما للزيارة .

فى هذا الطـابق عرضت مخلفات آل هابسبورج وإذا أنت زرت غرف القصر وأنعمت النظر فى محتوياته بلغت بك الدهشة حد الحـيرة والاعجاب . فهـذا المخدع كان مخصصاً لنابليون بونابرت حين كان يفد على القصر هو وزوجه ماري لويز ليزور حماه فرنسوا الأول . وهذه الغرفة الملحقة كانت لابنهما « النسر الصغير » وهذه قاعات الولائم والحفلات مبطنة جدرانها بقماش الجوبلان نقشت عليه رسوم زيتية بلغت من الاتقان حـداً تتضاءل أمامه آيات الفن الـكبرى . فقد كان الامبراطور الهرم مغرماً بالصور وبالفنون الجميلة فأنفق جزءا كبيراً من ثروته فى ابتياع الرسوم النادرة والطنافس الوثيرة ليزين بها قصر البرج . وذلك على الرغم من أنه كان يعيش فى جناحه الخـاص معيشة رجل ناسك ، فأثاث غرفه بسيط للغاية ، لا يزين مخـدعه إلا صورتان فوتوغرافيتان تمثلانه فى حياته الخاصة .

أتيح لنا أن نزور فى هذا القصر المتحف الخاص بمجوهرات آل هابسبورج ، ياللروعة والجمـال ... ان قصص الف ليلة وما يروى عن بذخ آل عثمان فى قصورهم ليتضاءل أمام هذه الجواهر

والتيجان تسطع فى الضوء ولايخفى عليها نور النهـار جنايته على الجمال المزيف .

تبلغ عدد غرف قصر البرج زهاء الف وخمسمائة غرفة ، عدا عشرات الأبهاء والصالونات والمقاصير والمزينات والحمامات ، مما كان الترف والأبهة يسيل فيها أنهاراً ، وقد تفقـدنا فى القسم الخاص بتحف آل هابسبورج مهد « النسر الصغير » .مهد فريد فى صنعه وفى الصورة التى شاء الفنان أن يعبر بها . فقد نقشت فوق حافة المهـد صورة بارزة للشمس فى وسطهـا حرف النون ، كأن رجل الفن يريد أن يرمز إلى الشعاع المنبعث فوق وجه الطفل من أول حرف لاسم نابليون . وفى طرف الحافة الأخرى صاغ الفنان تمثالا صغيراً من الذهب الخالص يمثل نسراً باسطاً جناحيـه ، إذ أن النسر هو الشعار الذى اتخذه نابليون رمزاً لسلطانه .

وشاهدنا عشرات من أثواب التتويج والصولجانات والتيجان والعروش وكل مايحتفظ بأبهة الامبراطورية أو يمت إلى شخصية الامبراطور بأقوي الصـلات . كثوب تتويج الملك فرديناند الأول المرصع باليواقيت والعقيق ، المبطن بالفراء الثمين ، والثوب الذى ارتداه الامبراطور فرنسوا ليلة تتويجـه . والتاج الذى قدمه السلطان احمد الى أحد الزعماء ليضعه فوق مفرقيـه اذا مانجح وفاز بخلع الامبراطور . فلما هزم الثائر وفشلت الثورة اغتصب التاج واحتفظ الامبراطور به رمزاً لسطوته واعلاء كلمته .

ودلفنا من القسم الخاص بتحف آل هابسبورج الى المتحف.

الكنسى حيث تعرض فى ردهاته أثواب الكهنة والباباوات وطيلسانات البطارقة وتماثيل من الذهب الابريز للمسيح فى أدوار جهاده ، وانجيل يوحنا المخطوط الذى كان الملك شارلمان يتلو منه صلواته ، وسيف الملك استيفان مؤسس الدولة المجرية ، وصليب تتويج ملوك النمسا ركبت فيه قطع من الخشب التى صلب عليها المسيح.

. . .

وغادرنا البرج لزيارة قصر الشونبرون فى ضاحية تقع فى أطراف فينا وتبعد عنها نحو ساعة بالسيارة . وكان هذا القصر معداً فيما مضى ليقضى الامبراطور فيه شهور الصيف ، شيدته الامبراطورة مارى تيريزا على نسق قصر فرساى ، وأنفقت عليه الأموال الطائلة وأحاطته بالحدائق الغناء والبساتين النضرة كيما يبز قصور آل هبسبرج روعة وجمالا .

واسم شونبرون من ألصق الاسماء بحياة الامبراطور فرنسوا جوزيف . فلما أرادت الحكومة النمسوية تخليد ذكرى امبراطورها العظيم . لم تجد مكاناً لعرض مخلفاته وآثاره وتخليد ذكره أفضل من هذا القصر الذى استقبل الامبراطور طفلا وودعه جثة هامدة . فجمعت فيه كل ما يمت الى حياة الامبراطور وموته بصلة .

فاذا أنت دخلت هذا القصر الآن . ألفيت جميع غرفه تزخر بذكريات الامبراطور العظيم .. فهنا ولد .. وعلى هذا

الفراش الحريرى البسيط توفى فى السادسة والثمانين . وفى هـذه الغرفة قضى طفولته ،وفى هذا الجناح اجتاز يفاعته . . وهنا قال: « وداعا شبابى » حين اتصل به نبأ نزول عمه عن العرش وأصبح لزاما ان يحل محله فى وقت كانت فيه نار الثورة تستعر فى أنحاء البلاد .وهذه هى الساعة التى أهداها الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان ، وهى أول ساعة عرفت فى التاريخ...وتلك هى صورة « النسر الصغير » ابن نابوليون . الذى قضى حياته فى ذلك القصر ، والصورة تمثله حاملا « الطفل » على ركبتيـه . وهذه هى الصحفة التى كان الامبراطور يتناول فيها طعامه وهو يشتغل بتصريف شؤون الدولة . وتلك هى بقية آخر لفافة تبغ دخنها قبل أن تستولى عليه نوبة السعال الشديدة التى توفى على أثرها.

وهذه هى شهادة اثبات الوفاة . وهى لا تختلف عن شهادة وفاة أى شخص عادى الا وجود كلمة « إمبراطور» أمام عبارة : « صناعة المتوفى ».

وفي هذه الغرفة أسلم الامبراطور الروح وكان أول من رآه بعد موته نجله ووريثه التمس . . .ثم صديقته وعشيقته « كاترين شرات » التى كان يزور قصرها كل يوم حتى بعد أن بلغ كلاهما من الـكبر عتيا .

ان زيارة قصر شونبرون الذى هو فى الواقع افخم القصور فى اوربا الوسطى ليعيد الي الذاكرة ايام مارى تيريزا ، والوان الترف التى اشتهرت بها . ففى القصر غرفة تعرف باسم « غرفة

المليون » وأحسب أنه اسم لم يطلق عليهـا عفوا ، اذ بلغ ما انفق على تزيينهـا ونقش حوائطهـا بالذهب وبالميناء نحو مليون ريال ، بل ان المطابخ الملكية كانت تحتل فى الشونبرون مائة وأربعين غرفة ، وهى جميعـا اكبر شاهد بما كان للامبراطورية النمسوية العتيدة من صنوف البذخ والأبهة .

. . .

بعد أن أنهت زيارتنا للشونبرون عرجنا على حديقة الحيوانات وهى تقع على مقربة من القصر ، فالى كازينو اللونبارك ، ثم استقللنا السيارة الى مودلينج لزيارة البحيرة المجوفة فى طريق معبد شق بين المروج والبساتين ، تكتنفها أنواع الكروم المعدة لعصرها نبيذا.

انتهينا الى مودلينج ، وبعد أن استرحنا قليلا فى أحد المقاهي قصدنا بحيرة منقورة فى جوف الجبل تصل اليها عن طريق فوهة رطبة مضاءة بالـكهرباء .

وبينما كنا نعتزم الدخول إذ أشار علينا الحـارس بأن نحمل معاطفنا فالجو في الداخل شديد البرودة .

وهبطنا الى المغارة في طريق صخرى أشبه ما يكون بمدخل الهرم الـكبير لـكنه كان رطباً بارداً . ولما أوغلنا داخل المغارة تلألأت أنوار الـكهرباء . وبعد مسيرة نحو عشرة دقائق الفينا أنفسنا فى طريق ينخفض عن سطح الأرض بنحو ٢٥٠ متراً ثم بدأنا نسمع أصوات خرير مياه منبعثة من أعماق الجبل . هنالك وقفنا وجهاً لوجه أمام بحيرة هائلة تريق الـكهرباء أنوارها

فوق صفحتها فيبعث هذا المنظر فى النفس صوراً هى مزيج من الرهبة والدهشة والخشوع والافتتان .

وكنت لا أزال مأخوذاً بروعة المكان حين أنشأ الدليل يقص علينا تاريخ المغارة والوسائل التى أستخدمت فى القرون الوسطى لاستخراج المعادن والأملاح من جوفها وجعل يعرض علينا نماذج من أدوات الحفر التى كان العمال يلجأون اليها فى تلك العصور . فهذه المغارة البالغة مساحتها نحو عشرة أفدنة كانت منجماً لاستخراج الأملاح المعدنية ، ثم تحولت فى زمن الحروب الى ملجأ للعجزة والأطفال .

ودعانا الدليل أن نستقل أحد الزوارق البخارية ليجتاذبنا أطراف البحيرة ، وكانت لاتزال شديدة الحلوكة رغم الأنوار الكهربائية ، يكفى أن تتخيل هذه الأقبية والحنايا وهذا الوجل الذي يلمس قلوبنا لو أطفئت الأنوار فجأة وبتنا فى ظلام دامس. ولكن صوت الدليل كان يشق هذا السكوت العميق ليصف المشاهد التى نمر بها . كمنظر عربة صغيرة يحمل عليها الملح ويجرها جوادان لم تر أعينهما الشمس ولا الضوء الطبيعى ، إذ أنهما لم يخرجا من المغارة منذ خمسة وعشرين عاماً . ومتحف صغير عرضت فيه الآلات والأدوات التى تستعمل فى المناجم كعربات الديكوفيل والخطوط الحديدية والمصابيح وبعض الحيوانات والديدان التى لاتعيش إلا في ظلام المناجم ، وتمثال سانتا بربارا شفيعة عمال المناجم

. . .

كانت قصيرة مدة مقامنا فى فيينا : فلم نمكث بها أكثر من أسبوع واحد . وقد يعود هذا الأمر الى أن المدينة كانت تحت الأحكام العرفية ، بسبب مقتل المستشار دولفوس . وقد يعود أيضاً الى سببين جوهريين : أولهما أن نفوسنا كانت قد ملت حياة المدن وتاقت الى الاستجمام والراحة والهدوء . وثانيهما جهلنا للغة الألمانية . وتعصب أهلها تعصباً يدفعهم الى الاعتزاز بلغتهم القومية ، وقلة اقبالهم على تعلم اللغات الأخرى .

على اننا استطعنا فى خلال الأسبوع الذى قضيناه أن نزور كثيراً من المعالم والآثار ، ككنيسة سانت أتين وكتدرائية فوتيف والرايت هاوس «دار البلدية» ومتحف التاريخ الطبيعى والفنون الجميلة ، ولم ننس أن نخصص جزءاً من وقتنا لزيارة الجامعة ، مثوى الفن والأدب والفلسفة ، ولما كنا فى فصل الصيف والدراسة معطلة فقد اكتفينا بزيارة مدرج الجامعة ومكتبتها وتماثيل العلماء والأساتذة الذين اشتهروا بأبحاثهم العلمية .

ومتحف الفنون الجميلة بفيينا يعد من أكبر المتاحف التى من نوعه فى العالم ، ويرجع سبب شهرته الى أن فيينا كانت لعصور خلت موطناً لأقدم العائلات المالكة فى أوربا ، وهى العائلة التى وضعت فوق رؤوس أفرادها تاج الأمبراطورية الرومانية ، وحكمت الممالك الجرمانية الوسطى ، وكانت الوريثة الشرعية لدوقية برجاندى ، وحامية حمى أوربا ضد مهاجميها من

الشرق ، وقد وصلت قوة هذه العائلة الى أسمى ذروات المجد ، وبالأخص فى عهد الاصلاح الذى نبذت فيه بعض التقاليد الدينية وتعلق الناس بالفن وشغفوا بالعلم الحديث ، لذلك كانت المجموعات المحفوظة بمتحف الفنون هى خير مثال صادق لازدهار هذه المجهودات البكر ، وصورة واضحة للتيارات الفكرية فى القرون الغابرة .

والمتحف مقسم الى أقسام عدة ، فمجموعة القرن السادس عشر تضم آثاراً فنية رائعة كالدروع والسيوف والخزف ومخلفات الامبراطور فرديناند الأول والكتب الخطية ومسكوكات الشعوب الوثنية ونباتات مجففة وأوانى معدنية ومرمرية وأحجاراً كريمة استعملت للبرء من السموم . وتمثل مجموعة القرن السابع عشر تاريخ النقش والتصوير . أما القرن الثامن عشر فهو عهد التماثيل والطباعة ، وبعد طرد أسرة هابسبورج آل كل مافى القصور الملكية من طرائف الفن النمسوى وآثار المدرسة الرومانية والايطالية والهولندية ليضم الى المتحف حتى تألفت منه مجموعة نفيسة تعد من آيات الفن التاريخى .

والقسم المصرى من أغنى الأقسام فى المتحف ، إذ عرض فيه بطريقة مشوقة تاريخ الفنون عند قدماء المصريين ، ونتيجة الحفريات التى قامت بها البعثات العلمية النمسوية ، ومما يرفع من شأن القسم المصرى أنهم لما أرادوا تنظيمه فى خلال القرن التاسع عشر على نسق المتحف البريطانى تبرع أمراء النمسا بكل

ما يملكونه من الآثار الفرعونية وفى مقدمتهم البرنس كانينسوت الذى قدم الى المتحف مجموعته الخاصة المكونة من نحو ألفين وسبعمائة قطعة .

يغادر الانسان متحف الفنون مكرهاً وبوده لو يقضى به أياماً وأسابيع ، فان زيارة ساعة واحدة لا تدع للنفس مجالا لاطفاء ظمئها ، ولكن عندما يجول فى حديقة المتحف وتقع عيناه على تمثالى جيته وشيللر يكلل جبينهما غار المجد ، أو يتنزه بين غابة فيينا وحدائقها كالبرايتر والرنج والفولكس جارتن ، ويشم ورودها وأزاهيرها ويستنشق نسيمها العليل ، يسأل النفس أهو فى بقعة من بقاع الفردوس أم فى خلوة من خلوات النعيم ؟ .

الى قمم الالب

تحوط فيينا عدة ضواح يتمثل فيها جمال الطبيعة ومعالمه الساحرة . حيث يهرع الناس اليها طلبا للراحة والاستجمام والتمتع بالهدوء ومراح الشباب .فأى جمال يضاهى هذه المصايف الثاوية فى أطراف الجبال ، التى يطلقون عليها « سقف فيينا » ؟ فانها لاتقل روعة عن أعظم المصحات العالمية ، بل قد تمتاز بموقعها الفريد بين الجبال والوهاد والدانوب . فهنا ضاحية تطل عليها قمم الالب المكسوة بالثلج الابيض ، وهناك ضواح تشرف على بحيرات صفا ماؤها ومروج نضرة وينابيع كبريتية .والحق ان النمسا هي أرض الميعاد لاولئك الذين أضنت الحياة اعصابهم، يلتمسون فى ربوعها راحة الفكر والجسم. والشعب النمسوى شعب وديع هادىء ، يرحب بالغريب ولا يفتأ يقدم اليه وسائل الكرم ودلائل الحب .

ولما كانت هذه الضواحى متشعبة بحيث لاتجد فيها سوى الجمال والبهرة والهدوء ،فانك تتحير أيها تفضل لقضاء أيامك؟ على أن لكل منها طابعها الخاص ومناخها المعتدل الذى يوافق كل الأمزجة .

وتقوم من ميدان الاوبرا بفيينا بين ساعة وأخرى سيارات «الامنيبوس» الى شومبرون أو كوبنسل أو سمرنج وغيرها من الضواحى بأجور مخفضة .

على أن أشد شيء أثر في نفسي هو أن سائق هذه السيارات على جانب غير قليل من الثقافة والالمام بتاريخ بلادهم وحرصهم على التغنى بجمال البقاع التى نمر بها . فهو يقف سيارته أمام مشهد تاريخي أو بقعة جميلة ويأخذ فى وصف بعض هذه الآثار مستعيناً ببوق فى يده . ولست أخفى دهشتى حين وقفت السيارة أمام مساكن العمال ، وكان الى جانبي فى المقعد شاب مثقف أخطأ فى ذكر تاريخ تمثال كارل ماركس المنصوب فى ساحة المساكن ، فما كان من السائق إلا أن نبهه الى خطئه فى لطف ذاكراً له ان العمال أعرف بتاريخ نبيهم من طلبة الجامعات البورجوازيين !

شيء آخر دهشت له وأعجبت به كل الاعجاب ، ذلك الشيء هو حرص هؤلاء القوم على أن يبرزوا أمامنا مواطن الجمال المبثوث فى الريف أو فى الجبل ، وتوفير سبل الراحة للسائحين ، فانى لا أنسى يوماً قصدنا فيه الى رحلة فى الجبال فاذا بأكواخ نظيفة مشيدة فوق قمم الجبال معدة لعشاق الرياضة الجبلية الذين يحلو لهم قضاء شهور الصيف بعيدين عن هموم الحياة وأشجانها

. . .

كانت السيدة التى التقيت بها فى القطار من بودابست الى فيينا من المولعات بالموسيقى فبعد أن زودتنى بالمعلومات الطريفة

عن حياة الموسيقيين الذين ظهر نبوغهم في سماء فيينا أرشدتني الى عنوان الدار التي أقام بها بيتهوفن فى أيامه الأخيرة ودار شوبرت وأغرتني بزيارتها . فلما آن لنا أن نغادر فيينا الى جبال الألب انتهزت فرصة ذهابي الى كوبنسل ، وهي ضاحية جميلة نسقت لتكون مراح الهوى والشباب ، فعرجت فى طريقى اليها على دار بيتهوفن التى تحتفظ بمخلفاته وأوراقه ، وتقع هذه الدار في اطراف فيينا بين حى اليهود المعروف « بالجيتو » وبين معامل النبيذ . غير انى بالأسف وجدت الدار مغلقة في هذا اليوم. ومررت بدار الموسيقى فرانس شوبرت وتفيأت فى ظل الشجرة التى غرسها بيده فى حديقة الدار وذكرت فى خلال هذه الدقائق التى قضيتها متفقداً دار «ملك الاغانى» - كما كان يلقبه معاصروه سينفونيته المشهورة « النشيد الناقص » وذكرت عبقريته التي تجلت فى تلحينه اشعار جوته وشيللر وتفوقه على من سبقوه من ارباب الفن الموسيقى .

وتابعت السيارة سيرها في طريق لا يمله النظر فى كل جزء من اجزائه حتى وصلنا بعد نصف ساعة الى كوبنسل ، على ارتفاع نحو الف متر لقضاء يوم الاحد وتناول الغذاء فى الكازينو الكبير .

فى كوبنسل ترى بيوت العائلات العريقة التى استوطنت اوروبا فى القرون الوسطى لا تزال محتفظة بمظاهر الابهة والمجد، وقد أفضى الينا رئيس خدم الكازينو الذى تناولنا فيه طعام الغذاء

بأن فندقه كان فى الأصل قصراً للكونت كوبنسل ، شاده فى القرن الثامن عشر الى أن انتفعت به البلدية وحولته الى كازينو فخم تتبدى تحته الى غاية مدى النظر أبراج فيينا وأطراف قصورها .

فى خلال الفترة القصيرة التى أقناها بكوبنسل أتيحت لنا زيارة دير هايلجا نكروتز وهو أقدم الأديرة فى أوربا الوسطى . به عامود تذكارى أقامه الراهب جولياني وتمثال خشبي للسيد المسيح وهو يغسل قدم أحد تلاميذه ، وزيارة قصر اللوكسمبورج وقد كان المقر الصيفى للأسرة المالكة .

تحف بالقصر بحيرة كبيرة آية فى الروعة والجمال يكفى أن تستقل أحد زوارقها فيبدو القصر كأنه مشيد فوق جزيرة . وفى جوف القصر سجن كان معداً للمحكوم عليهم بالاعدام فيلقون فى غيابته حيث تلتهم جثثهم الوحوش المفترسة ، وقد اكتفوا بأن وضعوا فى السجن تمثالا لنمر وتمثالا آخر لرجل مقيد بالسلاسل .

بالقرب من كوبنسل تقع ضاحية بادن ، وهى مشهورة بمياهها المفيدة لأمراض القلب وتصلب الشرايين ، وبآثارها القديمة التي تخلع عليها روعة وجلالا ، ففيها البرج المعروف باسم «كالنبرج» على ارتفاع نحو خمسمائة متر ، صعدنا اليه حيث تبدت تحت أعيننا عمائر فيينا كأنها ملفوفة فى نسيج من الضباب . فعلى اليمين نهر الدانوب يحف بالعاصمة وسلسلة جبال الالب والحدود المجرية ، وعلى الشمال قصر ليوبولد وبعض القلاع القديمة . وبرج كالنبرج هو الذى أهمل الأتراك احتلاله حين غزوهم بلاد النمسا متقدمين

الى أسوار فيينـا لحصارها ، فاستطاع القائد سويبسكى ملك بولونيا احتلاله حيث أصلى الأتراك منه ناراً حامية، ولعل هذه الموقعة هى أهم المواقع الحربية الحاسمة فى تاريخ الامبراطورية العثمانية إذ اضطرت بعدها الى اجلاء جيوشها عن النمسا فالمجر فبلاد البلقان .

وآن لنا أن نغادر بادن الى سمرنج لقضـاء بضعة أيام فى الأكواخ الجبلية والتماس الراحة والاستجمام والتمتع بالهـدوء . فركبنا سيارتنا وراحت تشق بنا طريقـاً حلزونياً بين الغابات والمروج ووديان الكروم ... هنا يقف القـلم اذا حاولت وصف الطريق حيث يتعلق النظر والسمع والفؤاد بكل جزء من أجزائه. راحت السيارة تجوس بنا خلال هذه المناظر الفتانة الناطقة بآى السحر الفاتن ، فذكرت كتاب النمسا وفنانيها وموسيقييها وعذرتهم على ما بعثته فى نفوسهم هذه البقعة من جنات الخلد من حب وشعر وولع بالطبيعة .

كان أول ما استرعى أنظـارنا فى سمرنج ، السكة الحديد المعلقة ، وهى عبارة عن صندوق كبير مربوط فى السلك ، بحيث تصبح معلقاً بين الأرض والسماء . فلمـا بغينا الوصول الى قمة ركس — أول سلسلة جبال الالب — كان لابد أن نرتقى القطار السلك ، فراح يتسامى بنا فوق رؤوس الأشجار السامقة ثم يمعن فى الصعود فيزج بنا بين لجات السحب . وكلـما ازداد تصعيداً خيـل الينا أننا فى طائرة ، فاذا الطبيعة الجبارة التى كنا نشعر حيالها بصغرنا وضآلتنا قد انبسطت تحت أقدامنا،

وإذا الأنوار والظلال تتموج فوق السفوح والبطاح حتى كان لنا من هذه المناظر الخلابة التى تتردد أصداؤها فى نفوسنا ماجعلنا نتساءل أفى حلم نحن أم فى خيال ؟

وانتهى بنا القطار السلك عند غايته ، فهبطنا منه الى مطعم صغير أنيق أشبه ما يكون بكهف فسيح منقور فى الصخر ، ينفذ النور اليه من كوات غطيت بقطع من الزجاج السميك اتقاء لتقلبات الجو وهبوب العواصف . وقد ألفينا فى هذا المطعم الصغير من جودة الطعام واستيفاء وسائل الراحة والرفاهية ، مالانجده فى خير الفنادق . وبعد أن انتهينا من تناول الغذاء وأخلدنا الى الراحة بعض الوقت ، انطلقنا إلى الجبل بغية الوصول إلى قمته . وشرع الدليل يتقدمنا ليقودنا إلى القمة ونحن قابضون بأيدينا على عصى مدببة أطرافها لتعيننا على التسلق . على أننى ما كدت أقطع نصف المسافة حتى أصابنى دوار الجبل ، فاستلقيت على الأرض أستريح واكتفيت بأن أمتع البصر بمشاهدة عشاق الرياضة الجبلية وهم يتسلقون القمم ويتسابقون فوق الثلوج . وبقيت كذلك إلى أن آن للقطار السلك أن يعود إلى سمرنج فالتمست مكانى فيه الى حيث ارتقى بنا بين لجات السحب.

واخترنا أن نغادر سمرنج فى ضحى اليوم التالى لنمضى الى سالسبورج ذات الماضى الحافل بضروب المجد والعظمة والجلال ، المفعم جوها بذكريات التاريخ الماثل فى كل نظرة تلقيها عليها ، بل فى كل خطوة تخطوها بين شوارعها الضيقة وأزقتها المتواضعة ،

فهي توحي اليك العودة الى تلك العصور وتربطك معها بوشيجة تآلف خفية .

والحق ان سالسبورج تقدم الينا دروساً ثمينة في التاريخ والفن والحياة . فالحصن الحربي الذي يشرف عليها يعد من أبدع الآثار العسكرية في العالم ، حيث تمتزج فيه الأوضاع الهندسية الصارمة بالرقة المتناهية . ولما كانت هي المدينة التي ولد بها الموسيقار العظيم موزار وتذوقت فنه وشهدت تألق مجده ، فان ذلك جعل لها مكانة رفيعة في عالم الموسيقى والانغام .

على ان قيمة سالسبورج ليست كامنة في شهرتها التاريخية والفنية فحسب ، بل في معالم البهجة والجمال التي تخلعها الطبيعة عليها . فمن قمم الألب التي تعقد فوقها قباب شاهقة مكللة بالثلج الأبيض ، وبحيرات سالزجا مرجوت الواقعة في سفوح الجبال ، المزخرفة شواطئها بالأكشاك والمباني الرشيقة ، الى المغارات التي تتجمد فيها الثلوج طول السنة ، والأكواخ الريفية التي يتخذ منها عشاق الرياضة الجبلية أوكاراً يلجأون اليها للراحة والاستجمام

ومع أن أعياد سالسبورج الموسيقية هي في الواقع أحد الأعياد الجرمانية الثلاثة ، إلا أن موزار صبغها بعطر خاص يطابق طبيعتها . وأولئك الذين توفروا على قراءة سيرة هذا النبي الملهم يقدرون عظمة الرسالة الموسيقية التي حملها ، وروعة الفن الذي أوقفه على التغني بما لطبيعة سالسبورج من سحر كان يزيد في الهامه ، ورحيق كان يستصفي منه مايضمنه ألحانه . فقد

كان موزار كثير التجول بين هـذه الجبال والسفوح ليخلو الى نفســه بعض الوقت ويسرح بصره فى جمال الغابة والبحيرة والشجر والزهر ، ويشنف سمعه بهذه الألحان القدسية ، من خرير الماء وحفيف الورق ، الى أغاريد الطير واختلاج الأغصان . وما أن يرجع الى داره ويجلس الى البيانو حتى يبوح بما كشفته الطبيعة له من أسرار جمالها وتصاوير اختيالها .

كان لزاماً إذن أن تـكون زيارة بيت موزار أول شيء نعنى به عقب هبوطنا سالسبورج ، والحق أن هـذا البيت أصبح الـكعبة الفنية التى يحج اليها كل من تذوق فن الموسيقار العظيم واهتز فؤاده بروعة ألحانه . ففى هـذا البيت ولد ـ طفل المعجزات ـ ونشأ وأضاءت فى أركانه نفسه الـكبيرة ، فـكان للعالم من أشراقها وتألقها أن تذوق الفن فى أنبل صوره وأدق معانيه.

وقد هيأ لنا الحظ أثناء مقامنا بسالسبورج أن نشهد جزءاً من برنامج الموسم الموسيقي الذى يقام فى سبتمبر من كل عام احيــاء لذكرى موزار ، ويشترك فيه عادة أوركسترا أوبرا فيينا الفيلهارمونى وأقطاب الموسيقى العالميون .

من هـذه الحفلات الموسيقية ماتقام فى ساحة الـكاتدرائية حيث يهرع الألوف من الناس اليهــا ، يرددون ألحان : المشترى وأعراس الفيجارو والقيثارة الطروب . وما يحتفل به في مسرح البلدية كاوبرات فيجاروس ودون جوان وكوزى فان توت . ولا يقتصر الموسم على احياء فن موزار وحــده بل هم يقيمون

حفلات تمثيلية شعبية ودينية ويعزفون ألحان ريتشارد شتراوس وفاجنر وفرانس شوبرت ونوابغ الموسيقيين النمسويين المعاصرين .

وكانت بادجشتاين خاتمة مطافنا فى تيرول النمسا . ففى ذات صباح جميل تخطينا سالسبورج بالاتوبيس بين جو سريع التقلب وطبيعة متغيرة . وحاولت أن أتزود بنظرة من فيض هذا البهاء وأودع هذه المناظر الفاتنة التى ألفتها أسبوعاً فاذا بالبصر يرتد حسيراً ، ومن يدرى فلعلنا لانعود اليها كرة أخرى .

من التجاوز أن تسمى بادجشتاين ضاحية أو قرية، وانما هى فى الواقع اعظم مصح عالمى ، وهى منذ مئات السنين قبلة الشفاء وملتقى هواة الرياضة الخلوية .

ولعل ميزة الفنادق فى بادجشتاين انها مجهزة جميعا بالحمامات الساخنة التى تجرى فيها مادة الراديوم ، المجددة للشباب والنشاط والعافية . وقد نظمت الطرقات الى الغابات والسفوح والبحيرات بما يزيد فى متاع المصطافين متاعا يدفعهم الي تقديس الجمال فى إطاره الطبيعى .والحياة فى بادجشتاين تختلف كل الاختلاف عنها فى مصايف التيرول . ففيها دعة وراحة ، وميل الى الصمت وعكوف على التأمل ، واستغراق فى سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة . فما ان تصعد الى فندقك فى ذروة الجبل حتى تحس كأنك نفضت عن قدميك غبار العالم وتدرعت بالغبطة التى تقطع الصلة بينك وبين ماضيك ومستقبلك، فتطلق نفسك من عقالها ، لتستقبل حياة كلها لذة بريئة واندماج في الطبيعة حتى تشاركها بعض مظاهر سرورها.

ما كان أحلاهـا ايام التيرول ، حين كانت توقظنا انفاس
لزهر ،فنغدو مع الطير الى الينابيع والثلاجات،أو ننطلق الى الغابة
نرتمى على صدر الطبيعـة الحنون ! لـكم وددت أن اقضى العمر
ى هذا الجو الذى تشيع فيه عذوبة الشباب والأمل ،حالما في بهجة
هـذا الفردوس المقيم . لست انسى حين فرض الطبيب على ان
تناول مقدار كذا من الجرعات ، فكنت أبكر إلى بعض هـذه
لينابيع وأحسو حسوات صغيرة من هذا الشراب السحرى الذى
بوحى صحة الابدان واستكمال أسباب العافية ويترك فى أغوار
النفس ظمأ العودة للورود من هذا المنهل العذب .

لقد انقضت على سياحة التيرول شهور ، وهأنذا جالس الى
مكتبى بهليو بوليس أحاول تدوينها قبل ان تفر أشباحها بعيدة فى
وادى النسيان السحيق ، فيبتلعها جوف الماضى وينسدل عليها حجاب
السنين . وهل لنا من الحياة سوى هذه الذكريات الباسمة والسويعات
الخالدة التى نحس حيالها كأننا عشناها عيشاً إنسانياً صحيحاً ؟

أجل هذه هى الحياة ياصديقى القارىء ، فمن لم ينل نصيبه
منها فكأنه لم يذق طعم الحياة. ولكم يكرهنى ان أطوى الحديث
معك عنها ، لأستأنف الكتابة عن الرحلة الثانية، ولكن أعدك بأن
نتقابل قريباً على هذه الصفحات .

« تم الكتاب الأول »

هليو بوليس . . . . مايو سنة ١٩٣٦

تصويبات

وقعت أغلاط مطبعية طفيفة فى بعض النسخ نسجلها هنا :

ص	خطأ	صواب
١٢	فى ظلال الاكروبول	على اطلال الاكروبول
٤٩	ليتعهد	كى يتعهد هو
٧٩	جلالة	جلاله
١٠٠	يتمع	يتمتع
١٠١	يعلم	تعلم
١١٢	نساءنا	نساؤنا
١١٣	أخرى	وأخري
١١٩	نجتازها	نجتازها
١٢٩	تحتت	تحت
١٣١	سدات	سيدات
١٣٤	أورقة	أروقة
١٦٣	القرون المجرية	القرى المجرية

مطبعة الشمس بشارع كلوت بك لصاحبها أنطون زرقا

« كانت روحى تنعم بشذى الورد الأبيض فى لذة وغبطة ، وكانت الورود البيض التى رأيتها فى الماضى فى الحدائق أو على الصدور أو فوق الموائد او فى أى مكان تنفر الى مخيلتى سراعاً حين قراءة الكتاب الذى نسق الأستاذ حسونه وروده كأنها وحدات الجيش تتجمع من هنا ومن هناك ساعة سماع النداء .

وقصص الورد الأبيض من النوع الذى يصلح لان يكون باكورة لأدب قومى حى ، فهو جدير بالاعجاب لاسلوب الكاتب المتحرر من الدائرة التقليدية ولكونه صوراً مصرية صريحة ولانه مجهود لأديب شاب يشق طريقه الى الميدان دون أن تحمله اكتاف الشهرة .

جريدة البلاغ　　　　ابنة الشاطىء

الورد الأبيض

مجموعة أقاصيص مصرية — وصور من الفن القصصى الحديث

للمـــــــــــؤلف

«ان الاسلوب الرفيع فى الأدب العربى الحديث وجد فى شخصية مؤلف الورد الأبيض خير كاتب جدير بحمل رسالته».

مجـلة لاسيمان اجبسيان

«... والورد الأبيض يعطينا فكرة صحيحة عن روح مؤلفه الوثابة التى تمثل مدرسة الشباب المتشبع بالمبادىء الحديثة، محاولا التخلص من قيود الأدب العربى القديم».

جريدة اللبرتيه — دكتور الفريد يلوز

«تمتاز قصص الورد الأبيض بالطابع المحلى وسلاسة العبارة وسهولة الوصف وما تجلبه الى النفس من السرور عند تلاوتها».

جريدة الاجبشيان غازيت — نيفل باربور

«ان لمؤلف الورد الأبيض مواهب القصصى الذى يرجى له مستقبل... خياله خصب قوى، وفى نفسه نزعة شعرية تجعله كثير العناية بمظاهر... والدلالة على ما لها من اثر طيب فى النفس والقلب».

جريدة البصير — صديق شيبوب

